المجتمع المصري بين الإنجازات والحريات

طغاة وإنجازات

ليس هناك عصر من العصور إلا له منجزات حتى في وقت الاحتلال والقهر ولو عددنا مثلاً المنجزات التي تمت إبان الحملة الفرنسية لنجد أنها كثيرة جداً في مجالات: السياسة والحكم ، والزراعة ، وإصلاح حال الفلاحين ، والصناعة ، والتجارة، والصحة العامة ، والقضاء ، وفي المجال الفكري والعلمي.

هذه المنجزات والإنجازات تمت في ثلاث سنوات فقط هي عمر الحملة الفرنسية ، وبرغم عدم استقرار أحوال الحملة في مصر أيام حكمها فقد واجهت ثورات المصريين، ومطاردة المماليك ، وكما واجهت الإنجليز والعثمانيين ..

وهذه المنجزات لم تكن حبّاً في شعب مصر إنما رغبة في استغلال ثرواته ، تماماً مثل شركات البترول الغربية التي تنقب عن البترول في أرض العرب ليس حبّاً في العرب ولكن رغبة في الانتفاع بثرواته .

كما أن هذه المنجزات كانت على حساب حرية الشعب وكرامته ، فالشعب المصري يفضل الحرية مع شظف العيش على الرفاهية مع الذل والمهانة ؛ لذا ثار الشعب المصري ضد الفرنسيين حتى أجلوهم ، فإذا تحدثنا عن المنجزات التي تمت إبان الاحتلال الإنجليزي لمصر فإنها تقدر بالمئات في كل المجالات : زراعية ، وصناعية، وتجارية ، واقتصادية ، وعلمية وثقافية .. فالإنجليز أنشئوا شبكة سكك حديدية متميزة، وأقاموا مجموعة متكاملة من القناطر والترع، بالإضافة إلى خزان أسوان، وألغوا السخرة في مصر. ولم يكن غرضهم خدمة مصر بقدر ما كان خدمة لبقائهم، واستمراره . فهل رضي الشعب المصري عن الاحتلال الإنجليزي بسبب إنجازاته ؟!!

الحقيقة أن الإنجازات ليست هبة تمنح من محتل غاصب أو إرضاء لطموح حاكم مستبد إن الإنجازات الحقيقية هي التي تنبع من احتياجات الشعوب ، وتهدف إلى تقدمها ورقيها ، وتشارك طوائف الشعب في إنجازها مختارة غير مكرهة ، حرة غير مقيدة .

وأدانت الشعوب الحرة حكامها الطغاة – وإن صنعوا لها مجدها – وحطَّمُوا أصنامهم ومزَّقوا صورهم وكتبوا تاريخهم الحقيقي حتى لا يقتفي أحد أثرهم ولا يتخذ منهم زعماء، وتتكرر المأساة .

فاهو ستالين زعيم الاتحاد السوفيتي – سابقاً– الذي قهر هتلر النازي وحقق نصراً كبيراً في الحرب العالمية الثانية لكنه سام شعبه سوء العذاب والنتيجة أنه أصبح رمزاً للدكتاتورية البغيضة وتنوسيت كل أعماله .

حدث نفس الشيء مع هتلر النازي الذي حقق لألمانيا من الانتصارات ما يجعلهم يفاخرون به إلى أبد الآبدين ، ولكن الشعب الألماني لم يغفر لهتلر طغيانه وبطشه فكتبوا عنه أبشع ما يكتب عن رئيس ، وحرصوا أشد الحرص على تعليم أولادهم هذا حتى لا يخرج هتلر آخر ليس ذلك فحسب بل إنها اعتذرت لكل الشعوب التي أضيرت بسببه ، وعوضت اليهود – ومازالت – عما جرى لبعض آبائهم وأجدادهم من إبادة على يد النازي .

وكذلك موسوليني الفاشي طاغية إيطاليا الذي ربما يرجع إليه السبب في انتشار الفاشية في الوطن العربي حيث قام بعض زعماء العرب بتطبيق تلك النظرية على شعوبهم لكن العجيب أن إيطاليا كفرت بالفاشية وقتلت موسوليني في حين أن شعوبنا العربية مازالت تنحني أمام تماثيل زعمائهم الفاشيين ويترحمون على عصورهم عصور الأمجاد !!!

وهذا هو الفرق بيننا وبين شعوب العالم المتحضر ، إن الشعوب المتقدمة تعرف أنه ليس ثمة خطر عليها أكبر من الطغاة حتى الذين حققوا مجداً لبلادهم لأنه حتماً مع استمرار الطاغية أن تتحول كل انتصاراته إلى كوارث ، وتتحول المكاسب التي حققها

لشعبه إلى أمجاد شخصية يستطيل بها على شعبه ، وتتحول الحرية وهي أغلى ما يملك الإنسان إلى عبودية وهي أسوأ ما يبتلى بها الإنسان ، وتتحول الطاقات المبدعة الخلاقة إلى طاقات معطلة هدامة لأن الإبداع والابتكار لا ينبت في أرض العبودية ، ولا ينمو وهو يتنفس هواء الاستبداد .

لكن للأسف الشديد وللأسباب التي ذكرناها فإن شعوبنا العربية قد عبدت طغاتها أحياء ، وقدستهم أمواتا !!

وراح الكُتَّاب المأجورون عملاء الاستعمار ، أو أعون الطغاة ، أو الجهلة وأنصاف المتعلمين يزورون حقائق التاريخ ، ويمجدون الطغاة الذي أذلوا شعوبهم وساموهم سوء العذاب وأحلوا قومهم دار البوار ، وحوَّلوا شعوبهم إلى مشاهدين لا مشاركين لما يصنع من أمجاد شخصية ومغامرات إجرامية ، وكما يخرج المشاهد مبهوراً بعد مشاهدة فلم لبطل قوي شجاع استولي فيه على أموال الناس بالقوة وتحدى القانون ، والجمهور المفتون بالبطولة لا يسال نفسه عن مدى مشروعية ما فعل هذا البطل ، ومدى صحة الوسيلة التي انتهجها ليحقق أحلامه ، وبدلاً من التفكير فيه هذا راح في استرجاع كم قتل البطل من أعدائه ، وكم تحدى ... ولا عجب – وهذا حالنا – أنْ كَثُر الطغاة في تاريخنا ، لأن الطاغية هو الصورة المثلى للزعيم البطل في أذهان كثير منَّا !!

متى ثار الشعب ضد عبد الناصر ؟

العجيب أن يثور الشعب المصري ضد كل محتل أجنبي وإن كان صاحب إنجازات في حين يستسلم للحاكم المحلي وإن سلبه حريته وعبث بمصيره .

يقول جمال حمدان : " إن المصري ليوشك أن يتصف بمتناقضة غير عادية إن لم تكن محيرة ، بين سهولة الانقياد والخضوع للحاكم في مجال السياسة والداخل ، وبين الشجاعة الوطنية الفائقة والصلابة العسكرية النادرة في مجال الحرب في الخارج . [1]

([1]) جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ / ص ٧١١ دار الهلال .

لكن إن كان المصري يصبر على الحاكم المحلي المستبد فإن لصبره نهاية ، ولصمته حدود ؛ فإذا نفد صبره ، وتجاوز المستبد حدوده انتفض المصري وثار غير هيَّاب بطغيان الحاكم ، ولا إرهاب نظامه .

مظاهرات الطلبة والعامل عام ١٩٦٨ م

جاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧ لتكشف الغطاء عن النظام الفاسد ، والشعارات المزيفة ويخرج شباب العمال والطلاب على نظام عبد الناصر بعد نحو ثمانية شهور من هزيمة يونيو ٦٧ بعدما اكتشفوا حجم الهزيمة ، وفداحة الأخطاء التي ارتكبها النظام (١) في حق شعبه فاندلعت انتفاضتا فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ .

لقد نهضت الحركة الطلابية بعد أن سكنت طيلة عهد ثورة يوليو .

راح الشعب المصري طوال العهد الناصري في سبات عميق رأوا فيه حلماً جميلاً صنعه عبد الناصر وآلة إعلامه الجبارة التي سخرَّها للتضخيم من منجزاته وتبرير إخفاقاته وعندما وقعت هزيمة ٦٧ استيقظ الشعب المصري ليجدوا أن مركبهم تتلاعب بها الرياح وتوشك على الغرق ، وربانها الوحيد يقول لهم لقد أخطأت وعليَّ أن أتنحى عن القيادة تنفيذاً لأمر أمريكا وإسرائيل فهبَّ الشعب المصدوم وقال لا تتنحى فإننا لا نعرف غيرك ولا نريد أن يشمت فينا الأعداء !

وانطلت مسرحية التنحي على الشعب المخدوع الجريح ولكن بعد نحو ثمانية شهور من هزيمة يونيو ٦٧ ومسرحية التنحي اكتشف الشباب والعمال حجم الهزيمة، وفداحة الأخطاء التي ارتكبها النظام في حق شعبه فاندلعت انتفاضتا فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ وتخللهما هتاف ضد عبد الناصر " يا خالد قول لأبوك ثلاثين مليون كرهوك .. دي مش عزبة أبوك " (٢)

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هزيمة ٦٧ راجع كتابنا " هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية " دار زهور المعرفة والبركة .

(٢) دراسة د. أحمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " ضمن كتاب " حرب يونيو ١٩٦٧ بعد ثلاثين عاماً " تحرير لطفي الخولي ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ص ٤٣ .

اكتشف الشباب أن المنجزات الناصرية التي ضحَّى الشعب المصري بحريته من أجلها ما هي إلا نكسات ؛ فزعيم القومية العربية قد مزَّق العرب ، وزعيم التحرر الوطني قد أضاع سيناء ، والضفة الغربية ، وقطاع غزة ، والجولان وقبل كل ذلك القدس الشريف ، وزعيم كتلة عدم الانحياز قد ارتمى في حضن الاتحاد السوفيتي البارد ، ورافع شعار كفاية في الإنتاج وعدالة في التوزيع قد التهمت مغامرته الخارجية الإنتاج ويده الباطشة قد وزعت الفقر والقهر على الجميع .

يقول د. أحمد عبد الله أحد قيادات الشباب الذين قاموا بمظاهرات الطلاب في فبراير ونوفمبر ٦٨ : " على المستوى السياسي كان النظام سلطويّاً قمعيّاً على وجه العموم؛ إذ رفض التعددية السياسية ، واحتكر الحكم صفوة عسكرية / مدنية أحادية ولم تغب فقط حريات التنظيم السياسي والنقابي والتعبير المستقل للأفراد والجماعات، بل غاب الكثيرون من المخالفين في غياهب المعتقلات الصحراوية "(١)

يقول السادات عن أسباب مظاهرات فبراير ٦٨ : " كانت محاكمة أعوان عبد الحكيم عامر أمراً لا مفرَّ منه ؛ فقد بدأت الناس تفيق بعد ٩ ، ١٠ يونيو تتساءل من المسئول عن الهزيمة ؟ ولماذا حدثت ؟ كما بدءوا يدركون أن عملية الصراع بين عامر وناصر لعبت دوراً رئيسيّاً في الكارثة التي حلَّت بمصر .

رَأَسَ المحكمة حسين الشافعي وقد جعلها علنية كما طلب هو من عبد الناصر وطبعاً حاول المتهمون إنقاذ رقابهم فحوَّلوا القضية إلى محاكمة لثورة ٢٣ يوليو فكانت النتيجة أن اختفى الوجه الجميل للثورة وهو إنجازاتها ولم يظهر غير وجهها القبيح وهو تضاعف الإجراءات الاستثنائية وكبت الحريات ، وكل ما جعل الناس تضيق بالثورة .

رأى الناس هذا الوجه للثورة وكأنه وجهها الوحيد فزاد سخطهم وخاصة أن جروح الهزيمة كانت مازالت تدمي في قلوبهم فكانت النتيجة الحتمية لهذا انفجار الطلبة في فبراير سنة ٦٨ الذي ما لبث أن عمَ جميع فئات الشعب . " (٢)

---

(1) د. أحمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " مرجع سابق ص ٢٤ .

(2) محمد أنور السادات " البحث عن الذات " المكتب المصري الحديث ص ٢٠٩ .

انتفاضة الشباب الأولى

اندلعت الانتفاضة في ٢١ فبراير على يد عمال حلوان فور إعلان حكم المحكمة العسكرية في قضية ضباط سلاح الطيران المتهمين بالإهمال ، والذين كان الرأي العام يرى أنهم مسئولون عن جانب كبير من الهزيمة العسكرية .. واعتبر عمال المصانع الحربية ، وكذلك زملاؤهم عمال الصناعات الأخرى أن الأحكام مخففة للغاية ، وكان رد فعلهم هو الخروج إلى الشوارع حيث أصيب عشرات منهم في صدامات مع الشرطة أمام قسم حلوان ، وتصاعدت الأحداث التي بدأت بهذا الاحتجاج للتحوَّل إلى انتفاضة جماهيرية واسعة شارك فيها الطلبة بدور فعَّال .

وفي الأيام التالية خرج الطلبة من بوابات الجامعة لأول مرة منذ عام ١٩٥٤ م كان وجودهم في شوارع القاهرة والإسكندرية ملموساً ، وظلُّوا على هذه الحالة جنباً إلى جنب مع زملائهم المتظاهرين من المناطق الصناعية والمناطق الأخرى في المدينتين حتى ٢٧ فبراير ، ونتج عن انتفاضة القاهرة وحدها مصرع اثنين من العمال ، وإصابة ٧٧ من المواطنين ، و ١٤٦ من رجال الشرطة ، وأُلْقِيَ القبض على ٦٢٥ شخصاً . بالإضافة إلى تدمير بعض المركبات والمباني في العاصمة .

وشارك في الانتفاضة الآلاف من طلبة الجامعات الكبرى في القاهرة والإسكندرية ، وكان لطلبة كلية الهندسة بجامعة القاهرة دورهم المتميز ، حيث كانوا في قلب الأحداث في واقعتين لهما أهميتهما الخاصة . وقعت الأولى في ٢٤ فبراير عندما شكَّلت مجموعة من طلبة الهندسة الكتلة الأساسية من وفد تكوَّن من الطلبة المتظاهرين أمام مجلس الأمة والذين سمح لهم بالدخول لتقديم مطالبهم لرئيس المجلس أنور السادات . وعند تسجيل أعضاء الوفد لأسمائهم عبروا عن مخاوفهم بأنهم ربما يتعرضون للاعتقال فأعطاهم رئيس المجلس كلمة شرف بل إن أحداً منهم لن يصاب بسوء ، بل والأكثر من ذلك أنه أعطاهم رقم تليفونه الخاص للاتصال به في حالة حدوث شيء من هذا القبيل . ومع ذلك اتضح أن مخاوف الطلاب كانت لها ما يبررها تماماً ، حيث تمَّ اعتقالهم في منازلهم في نفس الليلة !!

وفي اليوم التالي عقد الطلبة الذين استشاط غضبهم للقبض على زملائهم اجتماعاً موسعاً ، وقرروا تنظيم اعتصام في كلية الهندسة وبالرغم من أن الحكومة كانت قد قررت تعطيل الدراسة في ٢٥ فبراير فإن الاعتصام ، وهو الواقعة الثانية التي ارتبطت بطلاب الهندسة تم في ذلك اليوم واستمر ثلاثة أيام ، بينما كانت الانتفاضة في سائر البلاد آخذة في الأفول .

وكانت صيغة التسوية التي أنهت الاعتصام هي ما عرض على الطلبة من خلال وساطة إبراهيم جعفر ، وهو أن يتقدم الطلاب بمطالبهم إلى رئيس مجلس الأمة حيث تمَّ نقلهم من الكلية إلى المجلس ، وانعقد الاجتماع المقترح يوم ٢٨ فبراير باعتباره إنهاء للاعتصام وكان في واقع الأمر إنهاء لانتفاضة فبراير ١٩٦٨م كلها. ودارت مناقشات ساخنة بين الطلاب من جهة والمسئولين من جهة أخرى . بدا أثناء هذه المناقشات أن حجة الطلاب أقوى وطبقاً لما ذكره أحدهم : " ولا أذكر أن مجموعة من الوزراء قد استهزىء بها مثلما حدث في هذه الجلسة " .

جدير بالذكر أن بيان اعتصام كلية الهندسة بالقاهرة قد احتوى على المطالب التالية :

١- الإفراج فوراً عن جميع الطلاب المعتقلين .

٢- حرية الرأي والصحافة .

٣- مجلس أمة حر يمارس الحياة النيابية الحقة السليمة .

٤- إبعاد المخابرات والمباحث عن الجامعات .

٥- إلغاء القوانين المقيدة للحريات ووقف العمل بها .

٦- التحقيق الجدي في حادث العمال في حلوان .

٧- توضيح حقيقة المسألة في قضية الطيران .

٨- التحقيق في انتهاك حرمة الجامعات واعتداء الشرطة على الطلبة . (١)

---

(١) د. أحمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " مرجع سابق ص ٢٧- ٢٩ بتصرف .

إن مظاهرات العمال والطلبة لم تكن من أجل اعتراضهم على ضعف الأحكام الصادرة ضد قادة طيران هزيمة يونيو فحسب بل كانت من أجل المطالبة بحياة ديمقراطية سليمة تتمثل في برلمان حر يمارس الحياة النيابية الحقة السليمة ، وحرية الرأي والصحافة ،وإلغاء القوانين المقيدة للحريات ووقف العمل بها ، وإسقاط دولة المخابرات .

وقد تضمنت الشعارات التي كتبت على جدران كلية الهندسة إبان الاعتصام عبارات مثل : " يجب إنهاء حكم المباحث والمخابرات " ، " تسقط دولة المباحث "، " تسقط صحافة هيكل الكاذبة " ، " لا حياة مع الإرهاب ، ولا علم بلا حرية " ، " القضية ليست قضية الطيران بل قضية الحريات " .

وكانت بعض الشعارات التي كررها المتظاهرون موجهة ضد النظام نفسه تحديداً : " تسقط دولة العسكريين " ، يا جمال للصبر حدود ، عشرة يونيو مش هيعود " ، " ٩ يونيو أيدناك ، والنهارده عارضناك " . (١)

لم تكن انتفاضة الطلاب في فبراير ١٩٦٨ إذن مجرد احتجاج على أحكام محكمة عسكرية على مجموعة من المتهمين بالإهمال ، إنما كما يفسرها د. فؤاد زكريا : " كانت حركة الطلاب ١٩٦٨ تلخيصاً للسخط الجارف الذي اجتاح البلاد بعد هزيمة ١٩٦٧ . على أن الروح العامة التي كانت وراء هذا التحرك الطلابي كانت تعبر عما هو أكثر من السخط على الهزيمة ، إذ كانت في الواقع تعبيراً عن عدم الرضا عن أسلوب كامل في الحكم تعد الهزيمة العسكرية مظهراً من مظاهره السلبية "

وكان الأثر السياسي للانتفاضة رائعاً في البلد ككل وداخل الجامعات ، فعلى المستوى القومي اضطر عبد الناصر لأن يصدر قراراً بإعادة محاكمة الضباط المتهمين بالإهمال ، وتشكيل وزارة جديدة كان أغلبها من المدنيين ، معظمهم من

(١) د. أحمد عبد الله " ز. فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٠ .

أساتذة الجامعات ، وذلك لأول مرة في عهده ، والأمر الأكثر دلالة هو أنها جعلته يسعى لتجديد شرعية نظامه من خلال برنامج " ٣٠ مارس " بما كان يتضمنه من إصلاحات ليبرالية موعودة في النظام السياسي " (١) .

ولكن إعلام عبد الناصر وذيول نظامه قد عملوا على قصر المطالب على أحكام الطيران فقط وتجاهلوا سائر المطالب !!

رغم أن عبد الناصر نفسه اعترف بمطالبة الثوّار بحياة ديمقراطية سليمة ، وإلغاء الاتحاد الاشتراكي ، وتنظيم الشباب التابعين للنظام الحاكم . وإطلاق الحريات العامة، وحرية الصحافة .

يقول عبد الناصر : " النظرة الأعمق أمامنا تبين أن هناك أشياء كثيرة وحيوية لا ينبغي أن ننساها، ولا ينبغي أن تنسى .. يعنى طلعت شعارات في هذه الأيام ، زى ما قلت لكم إن المظاهرات مشيت سليمة، وبعدين طلعت شعارات غريبة ؛ طلعت شعارات مثلاً تنادى بإلغاء الاتحاد الاشتراكي ، طلعت نداءات أو شعارات تنادى بإلغاء منظمات الشباب ، وبعدين طلعت شعارات تنادى بحل مجلس الأمة . طبعاً مع هذه الشعارات فيه شعارات بالحرية، وفيه شعارات بالديمقراطية ، فيه شعارات بحرية الصحافة " (٢) .

فلم يكتف نظام عبد الناصر باعتقال وتعذيب الثوّار الشرفاء من العمال والطلبة بل راحوا يسيئون إليهم ويتهمونهم بالعمالة والرجعية والثورة المضادة !!

يقول عبد الناصر : " الظروف اللى بنعيش فيها النهارده تشجع الثورة المضادة، ليه؟ لأن احنا قابلنا نكسة في ٥ يونيو، والاستعمار والصهيونية استطاعوا إنهم يلحقوا بنا الهزيمة.. طبعاً الرجعية تنتعش، الرجعية تشعر إن أمامها فرصة، ومن ورائها الاستعمار لتنقض على هذه الثورة .

---

(1) نفسه ص ٣١ .

(2) من خطاب جمال عبد الناصر في مؤتمر الاتحاد العام للعمال بحلوان بتاريخ ٣/ ٣/ ١٩٦٨ .

ويستغلوا مين؟ يستغلوا الشعب الطيب.. الشعب البرىء، واحنا نعرف حتى فى الماضى قبل الثورة يمكن العمال ضللوا بواسطة الرجعية، والطلبة أيضاً ضللوا بواسطة الرجعية، أنا باقول إن العملية بدأت عملية تلقائية أما بدأت هنا فى حلوان، وبدأت عملية تلقائية أما بدأت فى الجامعة ولكن بعد كده العملية ما أصبحتش عملية تلقائية.

كل واحد يمكن فى البلد له أوضاع طبقية، وأنا برضه باقول لإخواننا الطلبة فى الجامعة: قبل ما تنقاد ورا أى شعار شوف مين اللى يردد هذا الشعار، وكل واحد له أوضاع طبقية ..

طبعاً فيه ناس اتاخدت أملاكهم، وفيه ناس اتاخدت أراضيهم ، فيه ناس اتأممت مصانعهم ، ودول أولادهم موجودين فى أوساطنا ، بيسمعوا منا كلام ويروحوا فى البيت يسمعوا كلام تانى.. يسمعوا منا فى المدارس والمعاهد كلام عن الثورة والاشتراكية ، لكن بيروحوا فى البيت بيسمعوا الكلام اللى بيمثل الرجعية.. بيتأثروا طبعاً بما يحدث فى بيوتهم وبما حصل فى عائلاتهم .

وأنا قلت لكم إن ثورتنا ماكانتش ثورة دموية عازلة أبداً.. احنا قلنا بالوسائل السلمية بنزيل الفوارق بين الطبقات، الرجعية اتحركت .. ازاى؟

حاولوا استغلال مظاهرات الطلبة بعد كده، حاولوا يتصلوا بالعمال ، وأنا شفت أحمد فهيم ، وعرفت منه محاولات بكل الوسائل للاتصال بالعمال فى أماكن مختلفة فى البلد.. ليه ؟ علشان العمال يسيروا فى طريقهم، ورفعوا لهم أيضاً شعارات الحرية والديمقراطية " (١) .

الانتفاضة الثانية

لم تمر بضعة أشهر على انتفاضة فبراير ٦٨ حتى عاد الطلاب مرة أخرى للضغط على نظام عبد الناصر .

---

(١) من خطاب جمال عبد الناصر في مؤتمر الاتحاد العام للعمال بحلوان بتاريخ ٣/ ٣/ ١٩٦٨ .

وكانت قوانين التعليم في ذلك الوقت تسمح لطلاب المدارس الثانوية بدخول الامتحانات لأي عدد من المرات ، وتضمن للطالب النجاح العام برغم رسوبه في مادتين (غالباً الرياضيات واللغات الأجنبية) .

فصدر قانون جديد للتعليم يرفع درجة النجاح الصغرى في عدد من المواد بالمرحلة الثانوية ، وينهى الانتقال التلقائي من صف دراسي إلى آخر في المرحلة الابتدائية ، ويضع حدا أدنى من الدرجات للالتحاق بالمرحلة الإعدادية .

نشر قانون التعليم الجديد في الصحف يوم ١٩ نوفمبر ١٩٦٨ . وفي اليوم التالي خرج طلاب المدارس الثانوية في مدينة المنصورة إلى الشوارع احتجاجاً على القانون الجديد .

وفي يوم ٢١ نوفمبر ١٩٦٨ استمرت المظاهرات التي بدأها هذه المرة طلاب المعهد الديني الأزهري البالغ عددهم ألفين من الطلاب خشية أن يتأثروا بهذا القانون الجديد الذي لا ينطبق عليهم . واتجه الطلاب المتظاهرون إلى مديرية الأمن . وأطلقت الشرطة الرصاص على المتظاهرين لتقتل ثلاثة من الطلاب ومُزَارعاً ، بينما جرح ٣٢متظاهراً و ٢٣ شرطيّاً .

انتقلت أخبار الاحتجاجات التي شهدتها المنصورة إلى جامعة الإسكندرية التي تضم عدداً من أبناء الدقهلية . وفي يوم ٢٥ نوفمبر حدث إضراب بالإسكندرية ، كما شهدت المدينة مظاهرات على نطاق لم تشهده من قبل ، وانتهت بصدام دامٍ بين الشرطة . وكما توضح أرقام الخسائر ، فإن الطلاب لم يكونوا وحدهم في هذه الأحداث : إذ لقي ستة عشر شخصاً مصرعهم (٣ طلاب ، ١٢ من الأهالي ، وتلميذ عمره ١٢ عاماً) في حين أبلغ عن وصول ١٦٧ مُصَاباً من الأهالي إلى المستشفيات كما أصيب ٢٤٧ من رجال الشرطة ، وأُلْقِي القبض على ٤٦٢ شخصاً، ووفقاً لتقرير وزير الداخلية فإنه تلقَّى تقريراً بالصور الفوتوغرافية حول الممتلكات التي دمرت أثناء المظاهرات وتتضمن : تحطيم ٥٠ سيارة أتوبيس نقل عام ، ٢٧٠ لوح

زجاج ترام ، ١١٦ إشارة مرور ، ٢٩ كشك مرور ، وزجاج ١١ محلاً تجاريّاً ، وحرق أثاث نادي موظفي المحافظة . (١)

لقد مثَّلت الانتفاضتان الطلابيتان في فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ تعبيراً شبابيّاً مرتفع الصوت عن أزمة كل من النظام السياسي ، وأزمة جيل ١٩٦٧ كليهما ، وكان التفاعل الصدامي بين الطرفين مؤذناً بتجاوز الهيمنة الأيديولوجية والسياسية للنظام على جيل الشباب ، حسبما أبرز ذلك الفرق بين تأييد النظام في ٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧ والتمرد عليه في فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ ، وقد مثَّل ذلك نوعاً من الانتقال من حال إلى حال في ديناميات النظام السياسي . إلا أنه جاء انتقالاً محجوزاً لم يأت بتحوُّل نوعي فقد بقي النظام متراوحاً بين أعمال برنامج ٣٠ مارس ، كخميرة للديمقراطية ، وأعمال مبدأ " لا صوت يعلو فوق صوت المعركة " فاستمر النظام كما هو في سياسته ، ولم ينطلق عقال الانتقال إلا بعد وفاة عبد الناصر ومجيء السادات للرئاسة . " (٢)

يقول السادات : " لجأ عبد الناصر إلى احتواء الانفجار فأصدر بيان ٣٠ مارس الذي حاول فيه أن يمتص غضب الشعب بمعالجة لكل الأمور التي تشكو منها الناس بعد أن كشفت لهم القضية عن الوجه القبيح للثورة . " (٣)

ويموت عبد الناصر دون أن يغسل عار الهزيمة التي جلبها لمصر والعالم العربي، ودون أن ينفِّذ شيئاً من الإصلاحات السياسية التي وعد بها في بيان ٣٠ مارس . (٤)

هل كان عبد الناصر ديكتاتورا ؟

ورغم أن المراجع العلمية تضع عبد الناصر ضمن أشهر زعماء الديكتاتورية في القرن العشرين لكن دراويش الناصرية ينفون صفة الديكتاتورية عن زعيمهم ، وينعتونه بكل صفات الحكام العادل النزيه المحب لوطنه وشعبه !!

([1]) د. أحمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " مرجع سابق ص ٣٦ .

([2]) د. أحمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " مرجع سابق ص ٣٨ .

([3]) محمد أنور السادات " البحث عن الذات " المكتب المصري الحديث ص ٢١٠ .

([4]) لمزيد من التفصيل عن نظام عبد الناصر انظر كتابنا " نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " مكتبة غريب .

يقول د. أسامة الغزالي حرب : " تُصرُّ الانسيكلوبيديا البريطانية أشهر وأهم المراجع الموسوعية على أن تضع عبد الناصر ضمن أهم زعماء الديكتاتورية في القرن العشرين جنباً إلى جنب مع : أتاتورك ، وموسوليني ، وهتلر ، وستالين ، وفرانكو ، وماوتسي تونج ، وخوان بيرون ، وتيتو ، وسوكارنو ، ونكروما ، وشارل ديجول .

الواقع أن الذين يحبون عبد الناصر يكرهون إطلاق صفة الديكتاتور عليه ! وفي الحوار القديم الذي أجراه فؤاد مطر مع محمد حسنين هيكل في سبتمبر ١٩٧٤ ونشره في ١٩٧٥ رفض هيكل وصف عبد الناصر بأنه ديكتاتور على أساس أن الديكتاتور " رجل يحكم بإرادته غير آخذ في الاعتبار رغبة الجماهير ومصالحها " أما عبد الناصر " فكانت لديه القدرة على تحسس الإرادة الشعبية " وكان " يعبر عن رغبة شعبية دفينة " وأن عبد الناصر " لم يكن يستهدف تدعيم سلطته أو حماية مصالحه ؛ لأنه كان حريصاً على ألا يملك شيئاً ".

وتلك هي وجهة النظر الشائعة للدفاع عن ديمقراطية عبد الناصر ونفي ديكتاتورته . ولكن الواقع هو أن الديكتاتور عادة ما يتحدث باسم الجماهير ، بل ويؤمن ويعلن أنه يعبر عنها ! والأمثلة المشار إليها آنفاً هي لزعماء أيدتهم شعوبهم وصفقت لهم بجنون، بمن في ذلك هتلر وموسوليني وفرانكو ! وأغلبهم أيضاً لم تكن له ثروات هائلة أو مطامع خاصة ! بل إن كثيراً من القادة الديكتاتوريين يضرب بهم المثل في التقشف والنزاهة الشخصية والحياة الصرامة البعيدة عن محاباة الأقارب أو الأصدقاء !

كل هذا شيء والديمقراطية شيء آخر تماماً ،ووصف قائد أو زعيم بأنه ديمقراطي لمجرد أنه يحس بشعبه ويشعر بآماله وآلامه ، ويعزف عن المطامع المالية والمادية ، ويستشير رجاله ، يشبه وصف شخص ما بأنه " مُسْلم " لمجرد أنه طيب الخلق ،حي الضمير ،مستقيم السلوك ولكنه لا يعرف الشهادة ، ولا الصلاة ، ولا الصوم ، ولا الزكاة ، ولا الحج حتى لو استطاع إليه سبيلاً ". [1]

([1]) د. أسامة الغزالي حرب " جمال عبد الناصر في ذكراه الثلاثين " مرجع سابق ص٣٦ ، ٣٧ .

من كان وراء الإنجازات الحقيقية لثورة يوليو ؟

إن من أوجب المهام التي تؤديها الحكومات المتسمة بالفعالية تحسين مستوى معيشة شعوبها بأن توفر لهم سبل الحصول على الخدمات الأساسية – كالصحة والتعليم والماء والصرف الصحي والكهرباء والنقل – وفرصة الحياة والعمل في سلام وأمن .

وليس هذا تفضلاً منها على شعوبها بل واجباً عليها نحوهم ، ولكن النظم الدكتاتورية تؤمن بأنه لا حق للشعوب على حكامها إلا ما يتفضل به حكامها عليها تماماً كما هو حال السيد مع عبده .

قصة منجزات الثورة في المشروعات الخدمية بدأت تظهر بوضوح بعد الصراع الذي اقتحمه عبد الناصر لينتزع من محمد نجيب الحكم لذا شرع أعضاء مجلس قيادة الثورة يتقربون أكثر من الجماهير ليس فقط عن طريق الخطب بل عن طريق إنجاز بعض المشروعات الجماهيرية ليكسبوا تأييد الجماهير في صراعهم على الحكم مع نجيب .

يقول خالد محيي الدين : " اتفقنا على ضرورة الإسراع بمشروعات بناء المدارس والوحدات الصحية في القرى كسبيل للحصول على المساندة جماهيرية في موجهة أية أخطار أو أية تحركات سياسية مناوئة ". [١]

وفي موضع آخر يقول خالد محيي الدين : " الاقتراب من الجماهير يتطلب عملاً متجهاً لتحقيق مصالحها ، أو على الأقل البعض من هذه المصالح ، وهكذا كان الإصلاح الزراعي ، ثم كانت النهضة الاجتماعية التي كرست من أجلها الأموال المصادرة من أسرة محمد علي ، حيث تم بناء مدرسة ووحدة صحيَّة ووحدة اجتماعية في كل قرية ، كانت مصر في ذلك الحين تبني مدرسة في كل يوم، وتبني وحدات صحية على امتداد ريف مصر كله . " [٢]

([1]) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مرجع سابق ٢٩٢ .
([2]) نفسه ٣٢٦ .

ويجب أن نتوقف قليلاً أمام ما ذكره خالد محيي الدين لنستخلص منه عدة نتائج مهمة:

١- إن أعضاء مجلس الثورة – في ذلك الوقت – لم تكن تهمهم مصلحة الجماهير إلا بقدر ما تقوي مكانتهم في السلطة ، فإقامة المشروعات الخدمية لم تكن حبّاً في هذا الوطن بل كان هدفها تقوية نفوذ مجلس قيادة الثورة ضد نفوذ محمد نجيب ! أو لكسب الجماهير بعد ذلك .

٢- لم تكن المشروعات الخدمية التي أقامتها الثورة تامة التجهيز مكتملة الإعداد إنما في الغالب الأعم هي مسميات على غير مسمى فالمدارس مثلاً قال خالد محيي الدين أنه بُني في كل قرية مدرسة ، نعم بَني في كل قرية مدرسة إنما مدرسة هي أقل نفعاً من كتَّاب القرية الموجود – في غالب الأحيان – فهي مدرسة بلا إمكانيات ولا مدرسين مؤهلين وسوف نعود للتحديث عن نظام التعليم لاحقاً .

٣- إن الأموال التي بنت الثورة بها هذه المشروعات الخدمية لم تكن فائض إنتاج أو عمل إنما كانت جزءاً من الأموال المصادرة من أسرة محمد علي وتأميم البنوك والمصانع والشركات .

٤- إن الذي قام بهذه المشروعات أعضاء مجلس الثورة في وقت أن كان القرار يؤخذ برأي أغلبية الأعضاء وقبل أن ينفرد عبد الناصر بالحكم ويحل مجلس قيادة الثورة ، أو عندما كان عبد الناصر الأول بين متساويين على حسب تعبير هيكل .

يقول زكريا محيي الدين : " في الأعوام الأولى من الثورة خاصة عاميها : الأول، والثاني كنا ناقش القرارات قبل إصدارها ونقوم بالتصويت عليها ولكن بعد ذلك اختفى مبدأ التصويت وأصبح القرار في النهاية لشخص واحد حتى ولو اختلفنا حول هذا القرار . وعلى سبيل المثال فقد كان قانون تحديد الملكية الزراعية والإصلاح الزراعي من القوانين التي تم التصويت عليها ، ولم يكن بيننا خلاف حول ذلك كما أن القرارات في بداية الثورة لم تكن تخضع لأفكار سابقة ، كنا نتعامل مع الظروف والأحداث التي نراها أمامنا وعلى ضوء هذا الواقع تكون القرارات والإجراءات التنفيذية . " [1]

([1]) من لقاء فاروق جويدة ، زكريا محيي الدين " من يكتب تاريخ الثورة ؟ " دار غريب ص ٤٨.

والعجيب أن معظم المنجزات التي يفاخر به الناصريون وينسبونها لعبد الناصر وحده لا شريك له تمت في عهد محمد نجيب إبان أن كان رئيساً للوزراء ثم صار رئيساً للجمهورية أو كان محمد نجيب قد خطط لإتمامها مع أهل التخصص لا أهل الثقة ، وما تم من هذه المنجزات بعد اعتقال نجيب جاء طفرة فجائية من أجل الدعاية السياسية ولم يأخذ حظه من التخطيط المحكم ولا من الدراسة المتخصصة مما أفقده كثيراً من مميزاته العملية وإن كان قد أدى دوره في الدعاية للزعامة الناصرية ، وفي ذلك يقول محمد نجيب : " بعد قانون الإصلاح الزراعي ، فرضتُ قانون تخفيض إيجار المساكن بنسبة ١٥ % ، وألغيت الأوقاف – عدا الأوقاف الخيرية – وألغيت البوليس السياسي، ورفعت مرتبات الجنود من ٦٩ قرشاً في الشهر حتى وصلت إلى ٣ جنيهات ، وسعيت لتحرير الأزهر من قيود الارتباط بالحكم فأصدرت قراراً بحل جماعة كبار العلماء ، وبدأت مواجهة شرسة من أجل تحديد النسل ، وتخفيض حجم المشكلة السكانية ، وسعينا لإدخال مياه الشرب والجمعيات التعاونية والوحدات الصحية في القرى ، وشددنا العقوبة على الاتجار بالمخدرات ، وقرأت مقالاً للدكتور سيد عبد الواحد يتوقع فيه أن تحدث أزمة خانقة في المواصلات والمرور إذا لم نسارع بالتخطيط لمواجهتها ، واقترح د. عبد الواحد أن ننفذ مشروع مترو الأنفاق وطلبت من وزير المواصلات أن يناقش فكرة د. عبد الواحد لنرى كيف يمكن تنفيذها لكن ضاعت الفكرة بعد أن اعتقلت ، ولم يؤخذ بها إلا في الثمانينات ، وكنت من أنصار تنوع مصادر الدخل القومي ، وألا نعتمد على الزراعة كل هذا الاعتماد الكبير كنت مع التصنيع ، ولكن ليس مع هذا التصنيع الفجائي الضخم الذي دفعنا إلى إهمال الزراعة، وتحولت مصانعه إلى دعاية سياسية وخسائر اقتصادية ، ولقد حددت في ١١ أكتوبر ١٩٥٢ سياستي الاقتصادية أثناء اجتماعي في الغرفة التجارية مع رجال الاقتصاد والمال والصناعة فقلت لهم : أولاً ، العمل على الاستقرار الاقتصادي بتركه للمختصين ليدرسوه ويضعوا الأسس اللازمة له . ثانيا، العمل على تشجيع استثمار رءوس الأموال الأجنبية ورءوس أموال الأفراد داخل القطر لتستثمر في الأوجه النافعة

لتنمية الاقتصاد وتقويته ، كما نعمل على تشجيع الأفراد والهيئات ليزداد نشاطها الاقتصادي وبالتالي يزداد نمو الثروة القومية وهذا هو الركن الأول من نهضتنا . وبالطبع انقلبت كل هذه الأسس بعد أن أُقِلْتُ من الحكم ، فزع رأس المال الفردي ، وأصبح العمال هم القادة ، ولم تعد هناك ضمانات للاستقرار أو للاستثمار ، كل شيء كان ينفذ بأسلوب الطفرة ، وضاع أهل الخبرة وجاء أهل الثقة ، ودخل الضباط كل المشروعات والمرافق . إن المشروعات التي أقيمت في الستينات كانت بلا تخطيط ، وبلا كوادر تديرها ، كانت مباني بلا معنى ، وكانت دعاية لا ضرورة اقتصادية ، ووصل التزوير في بعضها إلى حد الإعلان عن إنتاجها السنوي دون أن يفتتح المصنع أصلاً . حتى المشروع الضخم المسمى بالسد العالي كان الاهتمام بالجانب السياسي والدعائي فيه أهم وأكبر من الجانبين : الاقتصادي والفني ، كان لابد أن نقيم المشروعات المكملة له وإلا فقدنا الكثير من المميزات التي كنا نتمتع بها قبل بنائه وهذا ما حدث فعلاً فجاءت مميزات السد أقل من عيوبه لقد كانت الدراسة الفنية وجدوى مشروع السد العالي أمامنا وأنا لا أزال بعد رئيساً للجمهورية ونبتت في رأسي فكرة إرسال بعثات اقتصادية إلى مختلف دول العالم بما فيها الدول الاشتراكية للاطمئنان على إمكانية تمويله بلا متاعب ، وأعددنا دراسة لكل مشروعاتنا وأرسلناها إلى مختلف الدول بما فيها الاتحاد السوفيتي ، وافتتحت بنفسي معرض ألمانيا الديمقراطية التي أبدت استعدادها لتوريد مصانع كاملة لمصر ورصدت دخل المعرض كله للجمعيات الخيرية المصرية ، إنني كنت مؤمناً بضرورة مصارحة الشعب بكل شيء ؛ فالتحول الاجتماعي بدون حرية خراب ، والتحول الاجتماعي بدون ديمقراطية هبة من الحاكم يمكن أن يسحبها ، وفي كل قرار كنت أتخذه كنت ألجأ للخبراء وأهل المعرفة . إنني لم أكن أري إلا مصلحة مصر ، وفي سبيل هذه المصلحة ضحيت بكياني وأحلامي وأعصابي إن شعار " مصر فوق الجميع " كان شعاراً حقيقيّاً في عهدي ، ولكن الشعار انقلب تماماً في أيام أخرى تلت اختفائي من على المسرح " [1]

([1]) راجع فصل " بداية التحول الاجتماعي " من كتاب محمد نجيب " كنت رئيساً لمصر " مرجع سابق .

وعليه فما قامت به الثورة من إنجازات كإصدار قانون الإصلاح الزراعي ، على ما به من مآخذ ، وإنشاء الكثير من المدارس ، وإن كان على حساب جودة التعليم ، وكذا إنشاء الوحدات الصحية ، وكهربة خزان أسوان ، والإعداد لبناء السد العالي ، واتفاقية الجلاء ... إلى آخر ما ينسبه الناصريون والقوميون من إنجازات لعبد الناصر وحده هي في الحقيقة إنجازات لمجلس قيادة الثورة الذي كان برئاسة محمد نجيب ولم يكن عبد الناصر إلا أحد أعضائه ، وكان اتخاذ الرأي فيه بالأغلبية.

كما لا ينبغي أن نغفل دور الوزراء المدنيين والمستشارين الذين استعانت بهم الثورة في البداية في تحقيق هذه الإنجازات كما سيأتي بيانه في شهادة سليمان حافظ.

يقول أنور السادات : " كانت حصيلة أراضي العائلة الملكة المصادرة ٧٠ مليون جنيه أنفقناها على بناء الوحدات المجمعة والمستشفيات والمدارس في ريف مصر بحيث كنا نبني ٣ مدارس كل يومين ، وأذكر أننا بنينا في سنة واحدة قدر ما بُنِي في مصر من مدارس خلال ٢٠ سنة .

أنشأنا عند ذاك مجلسين – أحدهما للإنتاج والآخر للخدمات ، أما مجلس الإنتاج فقد بدأ عمله بمشروع "كيما" للسماد وعندما تعود بي الذاكرة إلى تلك الأيام أرى أمام عيني المهندس اليوناني الأشعث الشعر زائغ العينين الذي كان يتردد علينا في القيادة بالعباسية في أي وقت وبدون سابق ميعاد ، كان اسمه على ما أذكر " دانينوس " وكان في كل مرة يقتحم مقرنا يتفوَّه بعبارات محمومة فحواها دائماً فكرة واحدة وهي أن النيل عند منطقة أسوان يجب أن يغلق بسد عالٍ .

كان تمسكه بالفكرة وإلحاحه عليها مما دعانا إلى أن نكلف مستشار المجلس المرحوم المهندس محمود يونس بدراستها ، وقد عاد إلينا بعد فترة ليقول إنه بعد الدراسة والمعاينة يرى ابتداءً أنها فكرة رائعة ، وهكذا نشأت فكرة السد العالي ، وليدة للإيمان والحماس والبصيرة كما تنشأ كل الأفكار العظيمة .

وفي سنة ١٩٥٣ بدأنا أيضاً إنجاز مشروع قديم ظلَّ يتلكأ بين حكومات الأحزاب المختلفة وهو مشروع كهربة خزان أسوان.. ولعل المشروع الذي غير وجه المجتمع المصري والذي جعل ثورتنا ثورة حقيقية لا مجرد انقلاب عسكري هو مشروع الإصلاح الزراعي، فبعد أن ترك علي ماهر الحكم في سبتمبر ١٩٥٢ وتولى الوزارة محمد نجيب مباشرة كان أول عمل للوزارة الجديدة تحديد الملكية الزراعية بـ ٢٠٠ فدان وللتاريخ فإن الذي صنع هذا القانون بجميع تفصيلاته هو المهندس سيد مرعي." [١]

لاحظ صيغة الجمع التي يتحدث بها خالد محيي الدين والسادات والتي تدل على أن العمل كان جماعيّاً : مجلس قيادة الثورة مع الوزراء والمستشارين المدنيين الذين لم تخلُ منهم أي وزارة حتى ولو كانت عسكرية .

ونسبة كل إنجاز لشخص واحد فكرة قديمة أشهر من قام بها الشيعة مع علي بن أبي طالب فنسبوا إليه علم النحو وعلم التفسير وعلم الفقه كما نسبوا إليه علم الفلك والنجوم .

يقول الأستاذ أحمد أمين : " إسناد كل فضل وكل علم إلى علي بن أبي طالب إما مباشرة وإما بواسطة ذريته .. فأبو حنيفة أخذ العلم عن جعفر الصادق. وينسب فقه الشافعي إلى الإمام علي ، وكذلك مالك ، بل فقه عمر بن الخطاب يرجع إلى علي لأنه يرجع إليه في كل مسألة من المسائل ، وتفسير القرآن أخذ أكثره عن ابن عباس وهو أخذه عن علي .. وأبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو أخذه عن علي بن أبي طالب .. وعلى الجملة فليس هناك علم إلا وأصله علي بن أبي طالب كأن العقول كلها قد أجدبت وأصيبت بالعقم إلا علي وذريته وعلى رضي الله عنه من ذلك براء "[٢]

ويقول الأستاذ العقاد عن انتحال غلاة الشيعة كل العلوم لعلي رضي الله عنه:

([1]) محمد أنور السادات " البحث عن الذات " مرجع سابق ص ١٤٢ ، ١٤٣.
([2]) أحمد أمين " فجر الإسلام " ص ٤٣٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

" فقلَّ أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه – أي لعلي رضي الله عنه – ، وقلَّ أن تحدَّث الناس بفضل لم ينحلوه إياه ، وقلَّ أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه.

نحلوه ديواناً من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه ..

ونحلوه علماً سموه " الجَفْر " وزعموا أنه علم النجوم والأزياج [1] الذي يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان . " [2]

وكما نسب غلاة الشيعة لعلي بن طالب رضي الله عنه كل فضل نسب غلاة الناصرية لعبد الناصر وحده لا شريك له : الإعداد للثورة وإنجاحها ، طرد الملك وإسقاط الملكية ، طرد الإنجليز وتحقيق الجلاء ، إصدار قانون الإصلاح الزراعي والقضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال ، إلغاء الأحزاب والقضاء على فساد الحكم، إنشاء المدارس ، ومجانية التعليم ، إقامة المصانع المنتجة والشركات الرابحة ولولا عبد الناصر لظل الملك الفاسد ، والاحتلال الإنجليزي الغاصب ، وما تعلم فقير ولا عولج مسكين فهو الذي قضى على الثالوث الرهيب الجهل والفقر والمرض !!

والعجيب أن يؤمن بهذا الكلام ليس العامة فقط الذين نشئوا وتربوا وتعلموا في ظل الحقبة الناصرية (وهم غالباً الذين ولدوا في الفترة ما بين سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٦٥) إنما كثير من المتعلمين والمثقفين !!

يقول السادات عن الخدمات في العهد الناصري : " في سنة ١٩٦٥ كانت حالة البلاد الداخلية قد وصلت إلى مرحلة يرثى لها فعلي صبري كرئيس للوزراء لا يتخذ قراراً في أي شيء ؛ لأنه بطبعه يخشى المسئولية وربما لهذا السبب وقع اختيار عبد الناصر عليه ؛ فعبد الناصر بطبيعته الديكتاتورية كان يتطلب من رئيس وزرائه أن

([1]) الزيج : كل كتاب يتضمن جداول فلكية يُعرَف منها سير النجوم ، ويُستخرَج بواسطتها التقويم سنة سنة " المعجم الوسيط .

([2]) عباس محمود العقاد " عبقرية الإمام " ص ١١٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره وحسب ، وهكذا كان علي صبري فإذا أضفنا إلى هذا ميله الطبيعي إلى التجسس على الناس وتدبير المؤامرات والعمل في الخفاء لأدركنا سر تبرم الناس به ، فماذا يمكن للبلد أن تستفيد من حكومة هذا شأن رئيسها .

ومما جعل الحالة تزداد سوء أن مشاكل الخدمات عندنا من تليفونات ومواصلات وإسكان وخلافه أخذت تؤجَّل ابتداءً من سنة ١٩٦٢ على أساس حلها بخطط طموحة لم تكن قابلة للتنفيذ ، مما جعل هذه المشاكل تزداد وتتراكم سنة بعد سنة بحيث أصبح من العسير حلها ، وكان العذر الذي يتذرع به المسئولون في هذا أن الخدمات والمرافق يمكن التضحية بها في سبيل إقامة مصانع للإنتاج المشترك مع السوفييت .

في نفس السنة قطع جونسون المعونة الأمريكية عن مصر فرضعنا في موقف حرج إذ كشف بهذا خططنا فقد كنا معتمدين على أمريكا في القمح الذي كنا نستورده منها بالجنيه المصري فيوفر لنا حوالي ٨٠ مليون جنيه إسترليني نستفيد منها في مشاريعنا"[١]

كما أن هناك بعض ما عدَّه الناصريون من إنجازات عبد الناصر بمرور الزمن اتضح أنها من كوارثه مثل التأميمات الجائرة التي تمت دون محاكمات عادلة مما أثر تأثيراً على حجم الاستثمارات المصرية والعربية والأجنبية كذلك ، كذلك تخفيض إيجار المساكن ، والقضاء على ظاهرة " خلو الرجل " وهذان القراران قد تسببا في أزمة السكن التي ظهرت ابتداءً من السبعينات ومازالت مستمرة حتى اليوم، بسبب إحجام المستثمر المصري عن استثمار أمواله في مجال التعمير والبناء لارتفاع تكاليفه وانخفاض العائد منه .

يقول د. أسامة الغزالي حرب : " بالرغم من الإنجازات التي تمتع بها الشعب المصري وقت عبد الناصر نتيجة الآثار المباشرة لكثير من القرارات الاجتماعية الاقتصادية ما لبث أن ظهرت آثارها السلبية الفادحة في العقود والأجيال التالية ، فالتأميمات وبناء القطاع العام التي استمتع الشعب بثمارها في الستينات ما لبثت أن

([١]) محمد أنور السادات " البحث عن الذات " مرجع سابق ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

ظهرت آثارها السلبية مع ترهل القطاع العام وتمكن البيروقراطية منه ، وربما النتائج السلبية أكثر وضوحاً في مثال السياسة السكانية ، ففي أيام عبد الناصر استمتعت الطيقات الوسطى بالذات بتخفيض إيجارات المساكن والمدن والقضاء على ظاهرة " خلو الرجل " بالترهيب الإداري والأمني ، ولكن عيوب هذه السياسة لم تظهر إلا بعد ذلك حينما أحجم القادرون عن بناء المساكن ! ولم تستطع الحكومة وحدها مواجهة الطلب عليها مما نجمت عنه – بعد عهد عبد الناصر – واحدة من أسوأ أزمات السكن في مصر ، وما تزال بعض تداعياتها قائمة حتى الآن " [1] .

يقول فاروق جويدة عن إنجازات ثورة يوليو : " إن كل الإنجازات مهما كانت عظيمة تبدو هزيلة في ظل غياب حرية المواطن وإحساسه بالأمن ، وكل الشعارات البراقة لا تزيل لحظة خوف ، أو إحساس بالمهانة ، وكل ما قرأنا من أهداف ثورة يوليو وهي جزء عزيز من حياتنا تلاشى أمام تعذيب مواطن أو الاعتداء على حرمة بيت أو إنسان .

من هنا نأتي إلى جوهر القضية وهو أن الشرعية الثورية التي حكمت بها ثورة يوليو مصر ينبغي ألا يكون لها مكان الآن وأننا نتجه بالفعل إلى شرعية دستورية يجب أن نكملها بحيث توفر الضمانات لكل الأطراف حكاماً ومحكومين" [2] .

إن كل الإنجازات مهما كانت عظيمة لا قيمة لها في ظل غياب الحرية وانعدام الإحساس بالأمان ، فالحرية والكرامة أثمن ما يملك الإنسان ، ويحرص عليه حتى وإن بذل في سبيلهما دمه وماله وراحته وكل عزيز عليه .

يقول عنترة :

لا تسقني ماءَ الحياةِ بذلةٍ ... بل فاسقني بالعزِّ كأسَ الحنظلِ

ماءُ الحياة بذلةٍ كجهنمٍ ... وجـــهنمٌ بالعزِّ أطـــيبُ منزلِ

([1]) د . أسامة الغزالي حرب " جمال عبد الناصر قراءة جديدة في ذكراه الثلاثين " مرجع سابق ص ٢٨ .

([2]) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " مرجع سابق ص ١٠٩ ، ١١٠ .

التعليم بين الكم والكيف

إن التعليم هو أساس النهضة والتقدم ولم تتقدم أمة إلا بعدما حسنت نظام التعليم فيها ، وما تخلفت أمة إلا بسبب تخلف نظامها التعليمي هذا مقرر لا يختلف فيه اثنان ولا تتناطح فيه عنزتان.

مع ثورة ١٩ واستقلال مصر سياسيّاً بدأ الاهتمام بالتعليم في الزيادة ، وجاء دستور ١٩٢٣ الذي نص علي أن "التعليم الأولي إلزامي للمصريين بنين وبنات "وقد صدر مرسوم بقانون بإنشاء الجامعة الحكومية باسم " الجامعة المصرية" عام ١٩٢٥ مكونة من كليات أربع هي الآداب والعلوم والطب والحقوق ، وتوالي إنشاء الجامعات بعد ذلك " جامعة الإسكندرية " (١٩٤٢) جامعة عين شمس (١٩٥٠) .

ومن منجزات حكومة الوفد الأخيرة (١٩٥٠ – ١٩٥٢) وضع أسس راسخة لمبادئ العدالة الاجتماعية وديمقراطية الحكم فطبق مبدأ مجانية التعليم على التعليم قبل الجامعي بمرحلتيه : الابتدائية ، والثانوية ، واتسع نطاق القبول المجاني في الجامعة إلى حد بعيد [1] وطبَّق طه حسين وزير المعارف في حكومة الوفد مبدأ "التعليم كالماء والهواء" وكانت تلك هي البداية الحقيقية للتحول الاجتماعي ، ليس فقط في التعليم بل في فرص العمل وإدارة دفة المجتمع .

فمجانية التعليم لم تكن اختراعاً ناصريّاً كما يدعي الناصريون الذين يواجهون كل من يظهر سلبيات التجربة الناصرية بقولهم يكفي عبد الناصر فخراً أنه لولاه ما تعلم أمثالك ولا التحقوا بمدارس ولا جامعات !!

وبالنسبة لنظام التعليم في مصر في العهد الناصري سبق أن ذكرنا أن مجلس قيادة الثورة بعد مصادرة أموال أسرة محمد علي قرر بناء مدرسة ، ووحدة صحية في كل قرية ؛ لكسب رضا الجماهير للشرعية الثورية التي كانت في صراع مع الشرعية الدستورية التي كان ينادي بها محمد نجيب ، والحقيقة أن المدارس التي بنيت في

([1]) وطلاب الكليات ذات المصروفات – المعقولة – إذا عجزوا عن سداد هذه المصروفات تولت وزارة المعارف عنهم سدادها كانت هذه توجيهات طه حسين لرؤساء الجامعات .

الكفور والنجوع ومعظم القرى لا تستحق أن يطلق عليها اسم مدرسة ، وأن كتَّاب القرية كان أفضل منها وأجدى ففي قريتنا كان هناك كتَّاب للقرية تعلَّم فيه أحد أعمامي، وأحد أخوالي فحفظا القرآن الكريم كله وأتقنا القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب والدين والمعارف العامة . وعندما بني في قريتنا نزلة داود مركز طهطا محافظة سوهاج مدرسة في أول الستينات التحق بها أعمامي وأخوالي وخالاتي الصغار . كانت المدرسة عبارة عن بيت صغير جداً تبرع به عمدة القرية يشتمل على نحو خمس حجرات وعدد العاملين بالمدرسة لا يزيد خمسة : واحد للحراسة والنظافة، وواحد للإدارة والتدريس ، وثلاثة مدرسين غير مؤهلين تربوياً يقومون بتدريس كل المواد الدراسية هذه هي نوعية المدارس التي بنيت في الكفور والنجوع والتي يفاخر بها رجال الثورة . المفاجأة الأكبر أن الجيل الأول من أخوالي وخالاتي الذي تعلم في هذه المدرسة خرجوا منها بعد أربع سنوات أو خمس لا يحسنون القراءة والكتابة، ومعظمهم مازالوا أحياء يشهدون على ذلك .

أما المدارس الكبرى التي تخرج فيها العلماء والمفكرين والأدباء والمثقفين البارزين فكانت تلك المدارس التي بنيت وتأهل العاملون بها في عصر ما قبل الثورة مثل : السعدية ، والخديوية ، والخديوي إسماعيل ، والإبراهيمية ، والسنية ، والنقراشي ، والفسطاط ، ومصر القديمة ... وغيرها من المدارس الكبرى التي كانت في المدن والمراكز . لذا عندما يشيد بعض العلماء والمفكرين الذين تعلموا في العهد الناصري بجودة التعليم في تلك الفترة إنما يعنون تلك المدارس الكبرى وهؤلاء المعلمون العظام الذين علموهم ، أما فساد التعليم في العهد الناصري فلم تظهر نتائجه السيئة دفعة واحدة إنما بدأ الفساد ينخر فيه كالسوس شيئاً فشيئاً .

يقول أحمد زويل في كتابه عصر العلم : " كان نظام التعليم في مصر ممتازاً يقوم على مبدأ المنافسة الشريفة في بيئة اجتماعية متجانسة ،، وحظي المعلمون بمكانة بالغة الاحترام والتقدير من تلاميذهم والمجتمع بأسره ، وانعكس ذلك على العلاقة بين التلميذ وأستاذه ، التي كانت أصيلة ومشجعة وليست ملتفة حول الدروس الخصوصية لغايات مادية ، وكان التعليم يمثل قيمة اجتماعية عليا حظيت باحترام وتقدير الكافة ،

وتمتع المتفوقون من التلاميذ بمكانة اجتماعية مرموقة من كافة المجتمع ، وكان الحديث يجري على ألسنة الناس في دسوق بأن " فلان الفلاني" تلميذ متفوق ، فيثني عليه السامعون ثناء جميلاً ، فالتفوق الدراسي يتبوأ أصحابه مكانة اجتماعية عالية ، وقد يؤهلهم لمصاهرة عائلات مرموقة ، وعموماً فإن ذاكرتي عن التعليم في زماني تزخر بصور إيجابية تفوق أية صورة سلبية في هذا المجال . " [١]

فتلك المدارس [٢] التي تخرج فيها أحمد زويل وصديقاه : السياسي الكبير مصطفى الفقي ، والشاعر الكبير فاروق جويدة كانت تنتمي فعليّاً (كمنشآت ، وهيئة تدريس، وإدارة ، ونظام) إلى عصر ما قبل الثورة وإن جاء وقت التحاقهم بها بعد الثورة فقد استمرت هذه المدارس الكبرى تسير بقوة الدفع الذاتي إلى وقت غير قصير بعد الثورة، ثم ما لبثت أن لحقتها الآثار السلبية للتعليم فيما بعد .

إن ما أفسد العملية التعليمية غير ضعف إمكانياتها وعدم كفاية العاملين فيها هو غياب الديمقراطية التي أفسد غيابها التعليم ، فلا ينبغي عند التطرق إلى الحديث عن التعليم في مصر ومأساته الراهنة أن يغيب عنا اتصال ذلك بغياب الديمقراطية عن حياتنا لزمن غير قصير ففي ظلال الحرية تنمو الثقافة وينمو الفكر وينطلق القلم إلى آفاق الإبداع الرحبة وكل ذلك هو ما يخلق أفضل البيئات لنمو حركة تعليمية أفضل وأصح وأرقى ، وعلى النقيض فإنه في ظلال الحكم الشمولي تذبل الثقافة يأفُل الفكر ويتقوقع الإبداع العلمي ، وينجم عن كل ذلك نظام تعليمي متخلف خاضع لأهواء الحكم الشمولي . [٣]

ولم يكتف نظام التعليم الناصري بالفشل في تخريج علماء ومخترعين ومفكرين ومدعين بل عصف النظام الناصري بالموجودين من هؤلاء من أبناء ثورة ١٩١٩ والحقبة الليبرالية .

([1]) د . أحمد زويل " عصر العلم " دار الشروق ص ٣٦ .

([2]) تلقى زويل تعليمه الابتدائي في مدينة دسوق وحصل علي الشهادتين الابتدائية والإعدادية من مدرسة النهضة وحصل علي الثانوية من مدرسة دسوق .

([3]) طارق حجي " نظرات في الواقع المصري " مرجع سابق ص ٦٥.

ولم يتوقف النظام الناصري على القضاء على أهل الإبداع والمبادرة من زعماء الإصلاح من أبناء ثورة ١٩ بل أضل شباب مصر وأملها في مستقبل مشرق الذين ولدوا في الحقبة الناصرية والحقب التالية عليها .

فالدكتور عادل صادق الأستاذ بجامعة عين شمس يرُدُّ ضلال شباب سنة ١٩٧٧ إلى الحقبة الناصري التي تتمثل في : " أولا : إعلام ظل موجها لسنوات طويلة،واقتصر على الدعاية لقلة معينة ، وتشجيع كل ما هو سطحي وتافه ليصرف أنظار الناس عن الحقيقة وقتل تفكيرهم وإحساسهم بالمسئولية .

ثانيا : نظام تعليم أجمع كل المتخصصين على أنه تعليم فاشل كل وظيفته تخريج موظفين لا يفكرون .

ثالثا : قتل الإحساس بالانتماء إلى الوطن وذلك بقصر النشاط السياسي على المنتفعين المتعاونين .

رابعا : قتل العقيدة من خلال إضعاف مراكز الدين .

خامسا: قتل روح الطموح في نفوس أبناء هذا الوطن وتحطيم كل القيم الإنسانية وإعلاء راية الانتهازية ". [١]

إن ما كان التعليم في العهد الناصري حريصاً عليه حقّاً هو الدعاية لعبد الناصر وفلسفة كل قراراته وتدريس كتابه " فلسفة الثورة " ووضع صورته على أول صفحة في أي كتاب دراسي ، والحط من شأن من سبقوه أو عادوه والعصف بكل أساتذة الجامعة الذين عارضوه وهم كُثُر مما نتج عنه جيل لا يحسنون إلا الترحم على أمجاد هذه الفترة ويكادون لا يحسنون عملاً إلا من رحم ربي .

يقول طاق حجي : " ولا شك عندنا في أن التعليم المصري قد عرف أزهى سنواته – كيفاً ومستوى – خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين على يد جيل ممتاز من نوابغ المصريين الروَّاد في كافة المجالات أمثال : مصطفى مشرفة في

([١]) د. عادل صادق جريدة الأخبار " لماذا يضل الشباب ؟ " بتاريخ ١٧ / ٩ / ١٩٧٧ .

الرياضيات، د. حسين فوزي في العلوم ، د. على إبراهيم في الطب د.طه حسين ود.زكي مبارك ود. محمد عوض أحمد وأحمد أمين والزيات وكثيرين غيرهم في فروع الأدب المختلفة ، ومثل د. عبد الرزاق السنهوري ود.حلمي بهجت بدوي . ود. القللي ود. محمد نجيب الهلالي وعلى ماهر في مختلف فروع القانون وعشرات غير هؤلاء الرجال الأفذاذ في سائر مجالات التعليم العالي ممن نهلوا من مناهل العلوم الغربية الراقية .

وقد يتساءل البعض – بحق – عما أصاب التعليم في مصر في مقتل فجعله يهوي من شاهق ويسقط من سنام مجده لوهدته الراهنة والجواب عندنا أن التعليم في مصر قد تلقى أكبر الضربات التي قصمت ظهره وأوصلته لحالته المؤسفة الراهنة يوم أصبح التعليم سواء منه المدرسي أو العالي خاضعاً لاتجاهات الحكام الجدد في مصر بعد نجاح ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وبلغت المأساة قمتها عندما وضعت الثورة المنتصرة أحد ضباطها على رأس التعليم في مصر وهو الرجل الذي لم تكن له أية صلة بالتعليم أو الثقافة بل هو الرجل ذو الحظ المتواضع من التعليم والنصيب الأدنى من الثقافة ، ويهمنا هنا أن نحيل القاري الذي يرغب في التعمق في هذه الجزئية لدراسة د. أنور عبد الملك الأستاذ بجامعة السوربون في باريس والتي أصدرها في مستهل الستينيات تحت عنوان " مصر مجتمع عسكري " وبالذات لدراسته التحليلية للخلفية التعليمية والثقافية لأعضاء مجلس قيادة الثورة بوجه عام وللرجل الذي عهد إليه بالإشراف على التعليم في مصر بوجه خاص . [١]

إن للنظم التقدمية مؤشرات معروفة تدل – دون حاجة إلى مجهود – على أنها حققت أهدافها أو سارت في طريق تحقيقها بجدية . ومن هذه المؤشرات القضاء على الأمية ، وانخفاض معدلات الانحراف بأنواعه ونهوض التعليم ، وارتفاع مستوى الصحة العامة . وأخشى أن أقول أننا لو طبقنا هذه المعايير على التجربة الناصرية

([١]) طارق حجي " نظرات في الواقع المصري " مرجع سابق ص ٦٣.

لكان من الصعب أن ندرجها ضمن النظم التقدمية ، فالأمية قد ظلت نسبتها على ما هي عليه .

أما التعليم فإن التوسع الكمي الهائل فيه – وهو عنصر إيجابي بلا شك – قد اقترن بتدهور كيفي رهيب أصبح يشكل بالفعل خطراً على مستقبل هذه الأمة ، وأما الانحرافات فإنا لم نسمع مثلاً أن إدمان المخدرات قد توقف أو تضاءلت نسبته بل على العكس من ذلك ازداد استفحالاً برغم تشديد العقوبات . [1]

لقد زاد الإدمان من فرط الكبت الذي شعر به الناس وغياب الحريات ، وبسبب كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ والعجز عن فعل شيء فهرب كثير من الناس من الوقع المتردي إلى المخدرات ، وهرب كثير من الشباب إلى الفساد والانحلال ، وهرب البعض إلى التصوف والزهد ، ومن لم يجد له مهرباً وكان مشغولاً بالهمِّ العام أصيب بالاكتئاب مثل : صلاح جاهين الذي آمن بعبد الناصر زعيماً وكتب له أغاني عبد الحليم الوطنية وفوجئ بما حدث في ٦٧ .

الوحدات الصحية في عهد عبد الناصر

ذكر خالد محيي الدين أن مجلس قيادة الثروة كان يسارع بإنشاء المدارس والحدات الصحية في القرى بغرض كسب الجماهير ، وتحدثنا بشيء من التفصيل عن المدارس فماذا عن الوحدات الصحية ؟

أما عن الوحدات الصحية الموجودة في كل قرية فأنا أشهد – وقد أمضيت جزءاً من طفولتي في القرية – بأني لم أر شيئاً منها قط إنما كان الحلاق هو طبيب قريتنا، فإذا كان المرض خطيراً وصاحبه ذو حيثية حملوه على حمار وساروا به عشرات الكيلومترات إلى مركز المحافظة حيث يوجد مستشفى وأطباء .

والأمراض المستوطنة وخاصة البلهارسيا لم يكد يسلم منها أحد .

([1]) د . فؤاد زكريا " عبد الناصر واليسار المصري " مرجع سابق ص ٣٣ ، ٣٤ بتصرف .

ومن يرد أن يعرف صورة القرى المصرية فما عليه إلا أن يرى الأفلام التي صورت في قرى حقيقة مثل : يوميات نائب في الأرياف ، والأرض ، والزوجة الثانية، والحرام وغيرها وكلها تمثل حال القرية المصرية في الخمسينات والستينات.

يقول فؤاد زكريا : " ولست أود التحدث عن تدهور الصحة العامة ، وعجز الفقير عن أن يجد العلاج ومهزلة الوحدات المجمعة فتلك كلها أوجاع يعرفها الجميع ، وتعاني منها الأغلبية الساحقة.

هذه كلها سلبيات لم يخترعها أحد ولا يوجد فيها أدنى نصيب للمبالغة ، إنما هي تعبير صريح عن واقع موضوعي . ولا جدال في أن من حق المدافعين عن التجربة الناصرية أن يؤكدوا أن صورة الواقع الموضوعي لا تكتمل إلا إذا أضيف إليها الإيجابيات ، ولكن مثلما يتهم هؤلاء المدافعون خصومهم بأنهم لا يكشفون إلا عن وجه واحد للصورة هو الوجه السلبي فإن خصومهم يتهمونهم – عن حق – بأنهم لا يكشفون بدورهم إلا عن الوجه الإيجابي لتلك الصورة ، متغافلين تماماً عن وجهها السلبي الذي يشكل حقيقة لا جدال فيها . " [1]

أما ما يتشدق به المدافعون عن عبد الناصر فكل ما كان إيجابياً ينسب إلى مجلس قيادة الثورة ورئيسه محمد نجيب ابتداء من الإعداد للثورة ونجاحها وطرد الملك وجلاء الإنجليز إلى مجانية التعليم وبناء المدارس والوحدات الصحية وغيرها من المشروعات التي ذكرناها .

أما ما يعد عبد الناصر مسئولاً عنه بشكل كبير فيبدأ من سقوط محمد نجيب مريضاً بعد أزمة مارس ١٩٥٤ حتى حل مجلس قيادة الثورة بإعلان عبد الناصر رئيساً لمصر يوم السبت ٢٣ يونيه سنة ١٩٥٦ . منذ هذا التاريخ أو قبله بقليل وتحديداً منذ قرار تأميم قناة السويس يعد أي قرار سياسي مسئولية جمال عبد الناصر وحده . بما

([1]) د . فؤاد زكريا " عبد الناصر واليسار المصري " مرجع سابق ص ٣٤ .

في ذلك حرب السويس ، والوحدة مع سوريا والانفصال عنها، وحرب اليمن ، والقرارات الاشتراكية ، وكارثة ٦٧ وحرب الاستنزاف .

وهذا ما يؤكده هيكل أكثر المدافعين عن عبد الناصر حيّاً وميتاً فيقول عن منزلة عبد الناصر بين أعضاء مجلس قيادة الثورة : " في بداية عملية التحول كانت على القمة السياسية مجموعة من الرجال والشباب لم يزيدوا على عشرة أطلق عليهم وقتها وصف " مجلس قيادة الثورة " لكنه كان واضحاً منذ اللحظة الأولى أن واحداً بالذات بينهم كان له وضع خاص أشبه بما يوصفه التعبير اللاتيني الشهير الذي يصف رجلاً بأنه " الأول بين متساوين " [1] .. وحينما توقف القتال (في حرب السويس) فإن الرجل " الأول بين متساوين " لم يعد متساوياً معهم .. وهكذا فإنه أصبح في لحظة النصر " أولاً " بغير منازع ، وأكبر بغير خلاف ، وحين سطعت الأنوار بعد الإظلام فلقد بدا وحده تقريباً في دائرة الضوء وفي مركزها تماماً . " [2]

والحقيقة أن عبد الناصر كان الأول بين متساوين حتى انتهاء أزمة مارس إذا استثنينا محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة الذي كان ينطبق عليه هذا الوصف حتى أزمة مارس ١٩٥٤ أما بعد أزمة مارس فينطبق هذا الوصف تماماً على جمال عبد الناصر بلا استثناء ، كما أنه بعد حرب السويس وجلاء العدوان الثلاثي أصبح عبد الناصر الأول بلا منازع والمسئول الوحيد عن كل القرارات السياسية.

عبد الناصر والإعلام

الدعاية والإعلام وحجب الحقائق إلى جانب القهر والإرهاب هي أهم أسلحة الدكتاتور في إخضاع الناس لحكمه فكثير من الحقائق التاريخية التي حجبت بسبب عمليات غسيل المخ التي مورست على الشعب المصري لسنوات طوال والتي قامت

([1]) حسنين هيكل " سنوات الغليان " دار لشروق ص ١٠٦ .
([2]) نفسه ص ١٠٨ .

بها آلة الإعلام الجبارة فيكفي أن يتكلم الزعيم السياسي مرة واحدة وسط مظاهرة نظمت تنظيماً إيجابيّاً لكي تبدأ عملية التكرار والنشر السريع حتى تصل إلى آذان مئات الملايين من الناس عدة مرات في اليوم الواحد ، وحتى تفرض عليهم عدة مرات في دور السينما ، فلا يفلت من أثر الدعاية أي جانب يعتد به .

ولهذا السبب فإن الحُكَّام كانوا يحتكرون وسائل الإعلام احتكاراً خاصاً لهم فلا تخرج كلمة من مذياع ، ولا ترى صورة في تلفاز ، ولا تقرأ كلمة في كتاب ، أو جريدة أو مجلة ، ولا ينظم أي اجتماع دون مراقبة شديدة وتمحيص دقيق ترفع منها ما لا يتفق مع سياستها ، وتضع فيها بالإيحاء أو بالأمر ما ترى فيه مصلحة سياستها ، فيصبح عقل المواطن كالعجينة في يد الحكومة تشكله كيف شاءت .

ولقد فرض عبد الناصر رقابة شديدة على الصحافة المصرية التي كانت صحافة حرة لعبت دوراً كبيراً قبل الثورة وبعدها في تنوير الشعوب ومراقبة المسئولين وإبداء الآراء المستنيرة في قضايا الوطن حتى قضى عليها عبد الناصر بعد أزمة مارس بسبب وقوفها مع الديمقراطية ، والتعددية الحزبية ، وحرية الرأي .

وبتأميم الصحافة في ٢٤ مايو ١٩٦٠ وإغلاق صحف المعارضة وإقصاء الصحفيين الأحرار وفرض رقابة شديدة على كل ما ينشر في كافة وسائل الإعلام غُيِّب وعي الشعب المصري ولم يعد يسمع إلا صوتاً واحداً هو الصوت المؤيد تأييداً مطلقاً للنظام الحاكم .

يقول الصحفي الكبير موسى صبري : " عبد الناصر كان يريد أن يكون له صحافته، وبدأ بإنشاء " الجمهورية " ولكنها لم تنجح ؛ فلجأ عبد الناصر إلى أن يكون له الصحفي الأوحد المعبِّر عنه ، واختار محمد حسنين هيكل ، وترك عمله في أخبار اليوم ، وأصبح رئيساً لتحرير الأهرام ، ثم رئيساً لمجلس إدارته ، ثم رئيساً لمجلس إدارة أخبار اليوم مع الأهرام !

وأصبح هيكل هو الصحفي الوحيد الذي يتصل بجمال عبد الناصر ، وتطورت العلاقة إلى المشاركة في الحكم ، وتحولت كل الصحف – باستثناء الأهرام – إلى نشرات روتينية ، وتميز " الأهرام " بأخبار الدولة واتجاهات عبد الناصر ، ومقالات هيكل التي تبرز كل قرار .

واختل تماماً ميزان عدالة النشر . اتهام الثورة لأي إنسان يعني إدانته في الصحف مع قرار الاتهام .. لا مناقشة لأي قرار سياسي .

رئيس الدولة هو الذي يعين رؤساء مجالس الإدارة ورؤساء تحرير الصحف ، وفرضت عضوية الاتحاد الاشتراكي شرطاً لعضوية نقابة الصحفيين ، وشرطاً للعمل الصحفي ، وكان عبد الناصر يصدر قرارات الفصل والتعيين بالتليفون ... وأوقفني جمال عبد الناصر عن العمل ، عندما انتقدت صوت المذيعة همَّت مصطفى وهي تصف استقباله في الجزائر ، وقلت إنه مثل صوت المعيز !

ثم صدر قرار بمنعي من الاشتغال بالصحافة بعد مقالات كتبتها عن فساد الحكم خلال محاكمة شمس بدران وعباس رضوان بما سمي بمؤامرة عبد الحكيم عامر ضد نظام الحكم . " [1]

يقول الإعلامي الكبير صلاح مهران : " كانت الإذاعة قبل عام ٥٢ تعبر عن رغبات الجماهير واحتياجاتهم ، وبعد الثورة أصبحت الإذاعة تعبر عن اتجاهات الحكَّام وحكوماتهم . " [2]

ويسأل الكاتب عبد الله إمام ، سامي شرف عن دوافع النظام الناصري للتأميم الصحافة ، والقضاء على الصحافة الخاصة . وتوجيه كل الصحف للتعبير عن اتجاه واحد ودونك إجابة سامي شرف عن هذه الأسئلة : " لو أنك تركت صحافة خاصة

([1]) " مذكرات موسى صبري في ٥٠ عاماً في قطار الصحافة " مرجع سابق ص ٤٩ ، ٥٠ بتصرف

([2]) نقلا عن برنامج " وطني وصباي وأحلامي " الذي أذيع على البرنامج العام بتاريخ ١٦ / ٥ / ٢٠١٠ .

قوية في ذلك الوقت كنت ستجد نفسك مثل " ماكسويل " [1] هذا ما كان سيحدث ، أريد أن أسال وأنت أقدر مني على الإجابة ما هي حكاية ليلة القدر هذه التي كانت ومازال ينشرها البعض ، لقد كنت ستجد كل جريدة عندها ليلة مش عارف إيه من جهة ما . هل هناك مواطن مصري أو مواطنة مصرية يتبرع بمليون دولار ، ولا تقول اسمها حتى نذهب لنشكرها ، العيادة الشاملة ، وقوافل الإعلام والدعاية ، ومن أين ؟ ومن الذي يمولها ؟ كنت ستجد مصر "بوتيك". [2]

فالصحافة الخاصة بالنسبة للنظام الناصري صحافة عميلة تابعة لأعداء الوطن ، مشبوهة التمويل تعمل لحساب من يدفع لها من الشرق والغرب !!!

هذا رأي النظام الناصري في أصحاب الرأي الحر والفكر المستنير .

وبعد أن أقصى عبد الناصر أصحاب الفكر الحر انفرد هو وأتباعه بالإعلام المصري.

يقول ثروت عكاشة : " كان عبد الناصر يخصُّ الإعلام ولا سيما المرئي منه باهتمام يفوق الحد ؛ إذ كان يرى في الإعلام المرئي خير وسيلة لتنفذ صورته إلى كل بيت وتعم كل ناحية ، وهذا شأن الحاكم الفرد في كل زمان ومكان.

وإذا كانت وزارة الإعلام تملك من وسائل الدعاية ما يكفيها لترويج ما يطلب منه الحاكم الفرد ترويجه ، كانت وزارة الثقافة لا تملك من وسائل الدعاية شيئاً، كما كانت وزارة الإعلام أكثر من ووزارة الثقافة ثراءً الامر الذي مكَّنها من أن تجتذب المؤلفين والمخرجين والفنانين وتجزل لهم العطاء بسخاء غير معهود وهو ما كانت تعجز عنه موارد وزارة الثقافة المحدودة وهكذا غلبت سياسة الكم سياسة الكيف مما هبط بالمستوى الثقافي في كثير من الأحيان هبوطاً لاحظه كل مثقف في مصر وفي غير مصر إذ لم يجد العمل الجيد فرصته إلا في القليل فانزوى جانباً.

([1]) روبرت ماكسويل (١٩٢٣ – ١٩٩١) يهودي صهيوني استطاع أن يكوِّن إمبراطورية إعلامية تملك حصصاً متفاوتة في عدد من الصحف في ثلاث عشرة دولة من بينها الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وألمانيا والمجر واسرائيل .

([2]) سامي شرف " عبد الناصر كيف حكم مصر " مرجع سابق ص ٢٣٤.

ولا يخفى أن جهاز الإذاعة والتليفزيون في الدول التي يسودها نظام مركزية الحكم هو جهاز تحتكره السلطة باعتباره أنجح الوسائل للضبط والتوجيه وبث أفكارها وتبرير أفعالها . " [1]

لقد نحج عبد الناصر عن طريق آلة الإعلام الجبارة التي تروج لزعامته ولسياسته ، وآلة القمع الباطشة التي قطعت لسان كل معارض لهذه السياسة أن يجعل " شعب مصر بآذان بلا لسان " على حد تعبير الكاتب الكبير صلاح عيسى.

عبد الناصر والحريات

إن سلبيات التجربة الناصرية لا تقتصر على الأمور المادية كالسياسة الخارجية والداخلية والجيش والاقتصاد والتعليم. بل إن السلبيات المعنوية أخطر وأفدح.

وسوف نورد للتدليل على هذا شهادات تمثل رأي أقرب المقربين لعبد الناصر ، وحيثيات حكم محكمة الجنايات في قضية كمشيش .

يقول صديق العمر وزميل الثورة وحليف الصراعات وشريك الحكم عبد الحكيم عامر في وصيته : " لم أتخيل أبداً أن كبت حرية التعبير سوف يصل إلي حد كبت حريتي أنا أيضاً ولهذا فأنا مقتنع أن الحرية لا يمكن أن تتجزأ وأن الحرية إذا أصبحت مقيدة لن يكون أحد بمنأى عن تلك القيود وأرجو أن ما أعانيه الآن سوف يمثل درساً لنا في مصر وغيرنا من الدول العربية الحرية وجزءاً لا يتجزأ ولا يمكن تقسيمه إلي أجزاء .

وفي إحدى المرات قال لي أحد الوزراء العرب. وهو مفكر: هل تتذكر قبل عام ١٩٥٢ – أن صُحُفَكم كافحت من أجل الحق ؟ ما الذي حدث الآن؟ لا يوجد هناك أي نقد جوهري في أي جريدة مصرية لأي حدث سواء أكان سياسيّاً أو اقتصاديّاً أو عسكريّاً أو اجتماعيّاً هل أنتم خائفون إلي هذه الدرجة من النقد حتى تفرضوا علي الصحف التزام الصمت الأمر الذي لم تشهده أثناء أحلك أيام الملكية والإقطاع ؟ وفي

([1]) د. ثروت عكاشة " مذكراتي في السياسة والثقافة " ج٢ ص ٦٦١ ، ٦٦٢.

هذا الوقت كانت الحرب اليمنية قد دخلت عامها الثاني وعندما نقلت إلي الرئيس المحادثة التي جرت بيني وبين الوزير العربي بالإضافة إلي النقد الذي كثيراً ما كنت أبلغه للرئيس في هذه الفترة قال سيادته أن هذا الوقت "وقت الحرب في اليمن"لم يكن يسمح لنا برفع القيود عن الصحافة وعندما قمت بزيارة فرنسا عام ١٩٦٥. رأيت الرئيس الفرنسي ديجول يجتذب كل العظمة التي أقر بها العالم ولقد أتت العظمة من المعارضة في الجمعية الوطنية والأحزاب المتعددة ومن النقد في الصحافة الحرة وفي مصر نجد أننا للأسف الشديد عدنا إلي عصر المماليك وقصورهم ومحاكمهم وانتشرت الانتهازية والأنانية وكلما قمت باسترعاء انتباه الرئيس "لهذا" أصبح من الواضح لي أنه كان يشجع ذلك سامحه الله . " [1]

وليس غياب الحريات ، وإهدار كرامة الإنسان إبان الحكم الناصري رأي شخص موتور ، أو وجهة نظر حاقد حسود ، إنما حكم محكمة مبنيٌّ على أدلة : وثائق وتحقيقات وشهود . ولا يرقى إليه اتهام بتحامل أو ممالأة أو تحيز أو انحراف أو جور . تقول محكمة الجنايات في حيثيات حكمها في قضية "كمشيش" : " إن محكمة الجنايات تسجل للتاريخ أن الفترة التي جرت فيها أحداث هذه القضية هي أسوأ فترة مرت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث ففيها ذبحت الحريات وديست كرامة الإنسان المصري ، وإن المحكمة وهي تسجل هذه الفظائع ينتابها الأسى العميق والألم الشديد من كثرة ما أصاب الإنسان المصري في هذه الحقبة من الزمان من إهدار لحريته وذبح لإنسانيته وقتل لكافة مقوماته وحريته ورجولته وأمانه وماله وعرضه . إن المحكمة تسجل للتاريخ أيضاً وقلبها ينفطر أن ما حدث في هذه القضية لم يحدث مثله حتى في شريعة الغاب ولا البربرية الأولى . إن المباحث العسكرية الجنائية أمرت الرجال بالتسمي باسم النساء ، ووضعت ألجمة الخيل في فم رب العائلة وكبير الأسرة،

([1]) من وصية المشير عبد الحكيم التي ترجمتها جريدة " الجمهورية " عن مجلة " لايف " الأمريكية ونشرتها يوم ٢٦ / ١١/ ٢٠٠٩ .

ولطمت الرءوس والوجوه فيها بالأيدي كما ركلت بالأقدام وهتكت أعراض الرجال أمام بعضهم البعض وجيء بنسائهم وهددوا بهتك أعراضهن على مرأى ومسمع منهم ، ودربت الكلاب على مواطأة الرجال وتم ذلك فعلاً ، وهدد رب العائلة وإخوته بإخراج جثة والدتهم وكانت حديثة الدفن للتمثيل بها أمام الناس والتشهير بهم وإذلالهم أمام أهلهم وتسجل المحكمة أن المخلوق الذي ينسى ربه ونبيه ويأمر الابن بصفع أبيه هو مخلق وضيع وتافه ومهين . " [1]

ولم يكن عبد الناصر بغافل عن هذا التعذيب وإهدار كرامة الإنسان – كما يحلو للناصريين ادعاء هذا – بل إنه هو الذي أمر به كما يعترف محامو المتهمين بالتعذيب في هذه القضية : " قال الدفاع عن المتهمين بالتعذيب إن التعليمات الصادرة للمتهمين كانت آتية من السلطات العليا ولم يكن المتهمون يتصرفون من تلقاء أنفسهم . كان أمر الاعتقال يتم بأن يرفع مدير أمن المنوفية مذكرة لرئيس الوزراء ووزير الداخلية يطلب فيها اعتقال أهالي كمشيش ويبرر طلبه بالمحافظة على الأمن ، ويرفع رئيس الوزراء بدوره مذكرة للرئيس عبد الناصر الذي يصدر القرار بالاعتقال . " [2]

التخريب النفسي للإنسان المصري

والحق أن التجربة الناصرية قد تضمنت من عناصر القمع ما يتجاوز بكثير نطاق التدابير المشروعة التي تحمي بها الثورة نفسها ضد أقلية معادية لصالح المجموع. فالإنسان المصري قد خرج من هذه التجربة مختلفاً في جوهره الباطن اختلافاً جذرياً عما كان عند بدايتها . لقد كان في البدء – قبل الثورة – يشعر أنه يستطيع أن يتكلم، وأن يناقش وأن يعترض، وبأن البلد بلده وله فيها رأي مسموع.

([1]) جريدة الأخبار بتاريخ ٢٣ يونيو ١٩٧٨ .
([2]) جريدة الأخبار بتاريخ ٢٤ مارس ١٩٧٨ .

إن الإنسان المصري كان في أحلك الأوقات يشعر بأن الاضطهاد لا بد أن تكون له نهاية ، ويقف في وجه مضطهديه إلى الحد الذي يرغمهم في بعض الأحيان إلى التراجع كان هناك على الأقل الشعور بالأمل وبأن مكافحة الظلم يمكن أن تأتي بنتيجة ولو على المدى الطويل وبأن من يقمع الحريات ليس من حقه أن يقمعها ، ولا بد أن يعرف ذلك .

ولكن هذا الإحساس أخذ يختفي منذ اللحظات الأولى للتجربة الناصرية ورسمت سياسة لا بد أنها كانت منظمة ومخططة من أجل القضاء على هذه المعاني في نفوس الناس ، وإقناعهم بأن موقفهم من الحكام ينبغي أن يكون سلبيّاً وبأن إجراءات القمع لا ينبغي أن تقاوم ولا حتى بالكلام ، وحوكم أشخاص في السنوات الأولى وعوقبوا بسنوات طويلة من الأشغال الشاقة لأنهم اعترضوا في أحاديثهم الخاصة !!

وتسلل الرعب إلى النفوس بالتدريج ومع الرعب ظهرت السلبية والنفاق والتحدث بلغتين. وفقد الإنسان المصري قدرته على الرفض والاعتراض والاحتجاج ومع فقدان هذه القدرة فقد ملكة التفكير والعقلي المتزن ، والحكم على الأمور حكماً صائباً : إذ كان القمع مصحوباً بحملة دعاية منظمة قائمة على أسس علمية مدروسة تستهدف في نهاية الأمر ألا يكون هناك إلا رأي واحد وألا يسمع إلا صوت واحد وألا يسمع الناس إلا وجهة نظر واحدة تظل تردد مرة تلو المرة إلى أن يصدقها كل من كان يقاومها ولم يكن مقتنعاً بها في مبدأ الأمر .

هذا التخريب الداخلي لنفس الإنسان المصري وعقله هو في رأيي أكبر سلبيات التجربة الناصرية وحتى لو كان الهدف من عملية التخويف وإسكات الأصوات وتعطيل ملكات التفكير النقدي هدفاً وطنياً مائة في المائة فإني أعد التجربة التي تلجأ إلى هذا الأسلوب أشد ضراوة على الإنسان من تلك التي تترك له قدراً من الأمل

ومجالاً للاعتراض وهي في الوقت نفسه تستغله وتنهبه ، إن الأمرين بالتأكيد شر لكن ضرر التجربة الأولى أفدح .

ذلك لأن الإنسان هو في نهاية الأمر هدف كل تجربة في الحكم وبقدر ما تأخذ هذه التجربة بيد الإنسان لتعيد إليه الشعور بكرامته ، وبأن كلمته مسموعة وبأن له دوراً يؤديه في وطنه وبأن الحاكمين يستجيبون لرغباته ولا يفرضون عليه رغباتهم تكون الحكم التجربة ناجحة . " [1]

لقد كانت صفتا السلبية والاتكالية من أكثر السمات التصاقاً بكثير من الشعب المصري ، ولكن مع ظهور الحركة الوطنية في بداية القرن العشرين التي وصلت ذروتها في ثورة ١٩١٩ بدأت الإيجابية تدب في كثير من الشعب المصري خاصة قادة الفكر والسياسة فقامت مظاهرات ضد الإنجليز والحكم الملكي ، وكثرت العمليات الفدائية ضد المعتدين، وتعالت صيحات الخطباء ضد الفساد والمفسدين. وانطلقت أقلام الكتَّاب تكشف في حرية تامة سلبيات الوزارات وأخطاء المسئولين .

وكان الناس يتجاوبون مع قادة الفكر والسياسة ويؤيدونهم ويقفون وراءهم، واستمر هذا الأمر قائماً في سني الثورة الأولى حتى قبض عبد الناصر على الحكم فقضى على قادة الرأي والسياسة وأودعهم السجون والمعتقلات كما سبق ذكره بعد أزمة مارس ومع الرعب والخوف من الخروج على النظام الحاكم ، والدعاية الجبارة لترويج قراراته انطفأت جذوة الإيجابية وبدأ المصريون يتحولون من مشاركين إلى مشاهدين ، وأراحوا أنفسهم من عناء التفكير في قضايا الوطن وألقوا بتبعة المسئولية كاملة على النظام الحاكم .

وفي ذلك يقول فؤاد زكريا : " أحس الإنسان المصري العادي أن هناك من يفكر له، وبأنه ليس في حاجة إلى تفكير ، وبأنه حتى لو فكر فلن يجديه ذلك شيئاً؛ لأن

([1]) د . فؤاد زكريا " عبد الناصر واليسار المصري " مرجع سابق ص ٣٤ .

الأمور ستسير دائماً كما يريد أصحاب السلطة ، وكانت النتيجة الحقيقية هي اعتياد الإنسان المصري الانكماش والسلبية ، والوقوف موقف المتفرج غير المكترث ، وحتى المهتمين والمكترثين والمعجبين بنتائج التجربة كانوا يصفقون بطريقة سلبية: أعني أنهم كانوا أنهم كانوا يصفقون إعجاباً وانبهاراً بقرارات مفاجئة تصدر من أعلى ولا يؤخذ رأيهم فيها . والفرق هائل بين هذا النوع من التصفيق وذلك التصفيق الذي يهلل فيه الناس لأن القرارات التي طالما نادوا بها وشاركوا في صنعها وفي الدعوة إليها بإيجابية وفاعلية قدر صدرت أخيراً .

لقد أصبح الإنسان المصري من فرط خوفه وانكماشه يقبل أوضاعاً ما كان يقبلها من قبل أصبح يقبل باستسلام فكرة وجود قانونين : قانون للمحكومين ، وقانون للحاكمين .

صحيح أن – من حيث الأمر الواقع – كانت مصر طوال الجزء الأكبر من تاريخها تعاني من عدم تطبيق قوانين المحكومين على الحاكمين ، ولكن كان الشعور بالسخط يعبر عن رفض مكتوم لازدواجية القوانين ، ولكن أخطر الظواهر في التجربة الناصرية هي أن الناس أصبحوا بالتدريج يقبلون هذه الازدواجية بوصفها أمراً طبيعيّاً ، ولا يدهشون لها ، ولا يعلقون عليها وكأنها جزء من طبيعة الأشياء هذا ما أعنيه بالتخريب الداخلي لنفس الإنسان المصري وعقله .

المشكلة لم تكن انتشار مظالم واستثناءات بل كانت في اعتياد الإنسان عليها إلى حد أنه أصبح يراها شيئاً طبيعيّاً بحيث تبلد الإحساس بالظلم وتحول الاستثناء إلى قاعدة لابد من قبولها باستسلام . " [1]

يقول لويس عوض عن اعتياد المصريين على القهر والذل وإهدار كرامة الإنسان دون معارضة حقيقية بل رضا الغالبية عن ذلك إبان العهد الناصري : " فمن ذا الذي

([1]) د . فؤاد زكريا " عبد الناصر واليسار المصري " مرجع سابق ص ٣١ .

يستطيع أن يزعم ، حتى البسطاء من أبناء الشعب ، أنه يجهل باعتقال آلاف الأخوان المسلمين ، وآلاف الشيوعيين ، وآلاف الوفديين ، والمعارضين من كل صنف ولون ، ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم أنه كان يجهل ما كان يفعله زوَّار الفجر وزبانية المعتقلات وقد كان حديث الناس الصاخب أو الهامس في كل مكان . وهي لم تكتشف قبيل ١٥ مايو (١٩٧١) وإنما كانت جزءاً لا يتجزأ من قاموسنا السياسي على مدى ثمانية عشر عاماً.

وهي لم تمس باشوات القصور فحسب وإنما مسَّت المثقف والموظف والتاجر والعامل والفلاح ، وكل حي أو قرية منها بنصيب . ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم أن الجماهير أو الأفراد دائما تستنكر وتستفز كلما سمعت بإهدار حقوق الإنسان أو بارتكاب جسيم الأخطاء ؟

نعم كان هناك بعض الناس يستنكرون ويستنفرون بعض الأحيان كلما سمعوا بإهدار حقوق الإنسان أو ارتكاب جسيم الأخطاء ، أما الأغلبية فقد كانت دائما بين ساكتة وراضية ومصفقة لنفس هذه الأخطاء الناصرية التي نندد بها اليوم وسواء سكت المرء أو رضي أو صفق مقابل خمسين قرشاً أو بالاقتناع أو من فرط الهلع فالنتيجة واحدة مهما اختلفت الدوافع ، فالاختلاف يحدد درجات المسئولية ولكنه لا يغير النتيجة " [١]

ويرجع أحمد طعيمة – وهو على حق– جميع الكوارث التي حاقت بمصر في العهد الناصري إلى السلبية والاتكالية اللتين تولدتا عن سنوات القهر والذل والاستبداد يقول أحمد طعيمة في خطابه لعبد الناصر بعد النكسة: "وطالما أن الشعب لا يملك للمسئولين ضرّاً أو نفعاً ولا يملك حساباً أو عقاباً ولا شكراً ولا ثواباً فقد استسلم الشعب للسلبية المطلقة وكأنه لا ينتمي إلى هذا الوطن ولا تربطه به صلة.

([١]) د لويس عوض " أقنعة الناصرية السبعة " مكتبة مدبولي ص ٢٤ ، ٢٥.

ولقد أحسستم سيادتكم بذلك وأعلنتم إنها ظاهرة خطيرة يجب سرعة علاجها وتداركها وبدأنا في ذكر الحوافز المادية والمكافآت وفاتتنا الحقيقة فليس هناك إلا حافز واحد هو أن يملك الشعب مقدراته وأن يكون الأمر حقاً لا قولاً.

إن مأساة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وفرار القوات المسلحة لا انسحابها خلال ساعات وهو أمر لم يحدث في تاريخ الحروب في العالم كله . فالانسحاب وجه من أوجه الحرب ولكن الفرار بلا نظام ولا قيادة أمام العدو يستوجب التمحيص لا أن نمر عليه مروراً عابراً .

فلنعد بالذاكرة إلى عام ١٩٤٨ ففي العهد البائد في ظل فاروق والأسلحة والقيادة الفاسدة فقد قاتل الجيش ضباطاً وجنوداً قتال الرجال وأنتم يا سيادة الرئيس كنتم في الفالوجا وضربتم أروع الأمثال والبطولات بأسلحة فاسدة وتحت قيادة فاسدة .

فما بالنا عام ١٩٦٧ ومعنا أفضل سلاح دفعت فيه الأمة دماءها وعرقها ودموعها وحرمانها طوال خمسة عشر عاماً لا نقاتل ولا نثبت في موقع ، ونتخلى عن مواقعنا وسلاحنا للعدو ونهرب مولِّين الأدبار ، وهناك سبب واحد لقد قُضِيَ على بقايا الرجولة التي ورثناها قبل سنة ١٩٥٢ قضينا عليها في وقت السلم طوال هذه السنوات فلما واجهنا الحرب ولم نجد رجالاً .

فقد تركزت حفنة من الصولات السابقين والضباط في مكتب المشير وتمكنت من إهدار كرامة ورجولة الضباط صغارهم وكبارهم : أبو زيد ، وطنطاوي، وعلي شفيق ،وشمس وغيرهم .

وأن ما حدث في الجيش لهو صورة مما حدث في كافة القطاعات الأخرى في الدولة ولو قدر لهذه القطاعات أن تشتبك في معارك مع القطاعات المماثلة لها في إسرائيل أو غيرها فثق يا سيادة الرئيس أن نتيجة المعركة ستكون مماثلة لنكسة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

لقد فقد الشعب المصري رجولته وكرامته يوم أن أصبح لا يملك من مقدراته شيئاً وأصبح كل فرد فيه مهدداً في يومه وأسرته ، فقد حرية الكلمة وحرية الرأي وحرية العمل وحرية الحركة خوفاً من الخوف .

وإني لأذكركم بكلمة سمعتها منكم يوماً ولا زالت منقوشة على قلبي يغلغلها الأسى والحسرة قلتم بالحرف الواحد: " إني أود أن أكون أسداً في غابة تعج بها الأسود لا أسداً في غابة لا تعيش فيها إلا قطعان الماشية والأغنام . "

سيدي الرئيس : لقد تحوَّل الجيش والشعب إلى قطيع من الأغنام ولن تتمكنوا من إعادة بناء الرجال وتكوين الأسود لحماية الوطن الغالي من أعدائه إلا بحرية الكلمة وحرية الرأي وحرية النقد والمعارضة المنظمة ولا يمكن أن يتم ذلك في ظل اتحاد قومي أو اشتراكي أو تنظيمات سرية ولكن في ظل حزبين أو أكثر يكون الحكم بينها للشعب وعندما يملك الشعب مقدراته ويكون الأمر حقاً لا قولاً فيستطيع أن يعزل المسيء ويولي المحسن . ويقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت " [1]

لا يفقد الإنسان طموحه فقط بفقد حريته بل يفقد كل مزاياه كإنسان فضله الله تعالى على سائر خلقه يقول د. إبراهيم بيومي مدكور رئيس مجمع اللغة العربية:" إنه لا قلم ولا لسان ولا رأي ولا فكرة يعتد بها حيث لا حرية ، والشواهد على ذلك كثيرة ولا حاجة بنا إلى سرد أمثلة منها فقد عشنا فيها جزء من تاريخنا المعاصر وبلينا بشرورها ودفعنا في سبيلها أثماناً غالية خاصة كرامة الإنسان . " [٢]

أما د. حسين فوزي فيرى أن أكبر جرائم كبت الحريات في العهد الناصري إخفاء الحقائق ونشر الأكاذيب وتزييف الوعي : " واضح لنا جميعاً أن الحرية بمعناها السياسي والاجتماعي هي المطلب الأول في حياة مصر عقب سقوطها في هذه

([1]) أحمد طعيمة " شهادة حق " حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ص ٢١، ٢٢ .
([2]) جريدة الأهرام بتاريخ ٢/ ١٠ / ١٩٧٨ .

الدكتاتورية مدى ربع قرن . ويبدو أن بين ظهرانينا فريقاً من الناس اندمج في عصر الحكم الفردي تسوقه قوى الشر فيما وُصِف بمراكز القوى . ما أفدح خطب الأكاذيب التي حاصرتنا زمناً طويلاً فلم نتبين حقيقة واحدة في حياتنا إبان الفترة البغيضة وآثارها ما زالت تتخفي يمنة ويسرة . " [1]

ويحكي فاروق جويدة عن مأساة أبناء الثورة الذين آمنوا بعبد الناصر وكَفَر هو بهم أحبوه وأحب هو نفسه ضحوا بأنفسهم من أجله وضحى بهم من أجل نفسه : "إن مشكلة جيلي مع عبد الناصر أنه كان قصة حب كبيرة انتهت نهاية مفزعة ، وربما كانت من طرف واحد لأننا أحببناه ولا أعتقد أنه أحبنا بنفس الدرجة ، ولو كان عبد الناصر أحبنا لما بخل علينا بأكبر حلم حرمنا منه وهو الحرية، ومازلنا حتى الآن ندق أبوابها الموصودة في وجوهنا ، وما زالت مغلقة لقد أضاع علينا عبد الناصر أكبر فرصة في تاريخنا الحديث لنبني معه تجربة ديمقراطية تليق بنا وبتاريخنا .

ولهذا لم يكن غريباً أن تبقى قضية الديمقراطية حتى الآن واحدة من أهم واخطر القضايا التي سقطت من أيدينا ولم نستطع حتى الآن أن نستردها . " [2]

ويقول السادات عن فقدان الشعب المصري لحريته في العهد الناصري : "القوانين الاشتراكية التي صدرت في ٢٣ يوليو ١٩٦١ من أجل مصلحة الشعب ولكن مجموع الشعب كان مازال يفتقد شيئاً مهماً في حياته وهو الحرية ، فعندما لا يكون الإنسان آمناً على نفسه لا يمكن أن يعوضه شيء عن هذا .

هذه حقيقة لم يدركها عبد الناصر إلى يوم أن مات ، كان يتصور أن الشعب مرتاح وسعيد وراضٍ عن أسلوب الحكم لأن الناس عندما تراه كانت تهتف له وتهلل وتصفق، ولكنه نسي أن في ضمير كل مواطن ، حتى في الطبقات التي كان يعتقد أنه يخدمها،

([1]) نفسه بتاريخ ٤/ ١٠ / ١٩٧٨ .

([2]) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " مرجع سابق ص ١٠.

حقيقة أساسية تطغى على كل حقيقة أخرى وهي الإحساس بالحاجة إلى الحرية والأمن" [1] .

والعجيب أنك إذا سألت أي ناصري ما هي أهم منجزات عبد الناصر أجابك على الفور ودون أدنى تفكير : العزة والكرامة ، لقد أعاد عبد الناصر كرامة الإنسان المصري المسلوبة . !! لكن الذي يزيل العجب من اتصاف عهد أهدر كرامة المصريين بأنه عهد العزة والكرامة أن الكلام عن العزة والكرامة كانت أهم الشعارات التي رفعها عبد الناصر ورددتها أبواق الدعاية الناصرية على مدى ثمانية عشر عاماً. فقد أوهمت الدعاية الناصرية أن الكرامة لم يكن لها وجود في القاموس المصري حتى جاء عبد الناصر وخلقها ، والخلق يعرِّفه اللغويون بأنه إيجاد من عدم على غير مثال سابق ، أليس عبد الناصر هو القائل " إذا كان جمال عبد الناصر لم يمت فى سنة ٣٠، وكتب له أن يموت اليوم، فإنه يموت مطمئن البال.. مطمئن الضمير ؛ لأنه خلق فيكم العزة ، وخلق فيكم الكرامة ، وخلق فيكم الحرية." [2] وكثير من خطب عبد الناصر تؤكد على هذا المعنى مما جعله يستقرَّ في عقل العامة فكما يقول علماء النفس : إن ما يردده اللسان يستقر في الجّنان (القلب) . فتكرار المعلومة – وإن كانت كاذبة – بشكل رتيب ، يكوِّن في عقل ووجدان سامعها رصيداً يزداد يوماً بعد يوم دون أن يشعر حتى تصبح حقيقة مسلَّم بها لا تقبل الجدل .

ومن المعروف أن العقل الجمعي في كافة المجتمعات يسهم بدور مؤثر في صياغة تصورات الناس سلبًا أو ايجابيًا ويمكن أن يُوَجَّه لإقرار تصورات وأوهام تصبح فيما بعد لدى البعض حقائق وافتراضات ومع تكرار هذه الأوهام يمكن أن تمثل نقاط ارتكاز في عقل وشعور الفرد / الجماعة .

([1]) أنور السادات " البحث عن الذات " مرجع سابق ص ٣١.

([2]) من خطاب الرئيس عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية بمناسبة عيد الجلاء (حادثة المنشية) ٢٦ / ١٠ / ١٩٥٤ .

ولله در أحمد شوقي لقد عبَّر عن العقل الجمعي المصري الذي ردد الأوهام حتى صدقها .

يقول أحمد شوقي على لسان مساعدي أمين مكتبة قصر كليوباترا: حابي وديون.

حابي:

اسمع الشعب ديون * كيف يوحون إليه ؟

ملأ الجوَّ هتافاً * بحياتي قاتليه

أثر البهتان فيه * وانطلى الزور عليه

يا له من ببغاء * عقله في أذنيه

ديون:

حابي سمعت كما سمعت وراعني * أن الرميَّة تحـــتفي بالرامي

هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم * و أصار عرشـــهم فراش غرام

ومشى على تاريخهم مســـتهزئاً * ولو استطاع مشى على الأهرام

أرأيتم كيف حوَّلت الدعاية هزيمة كليوباترا إلى نصر مؤزر يتغنى به الشعب المخدوع؟

وهذا ما يمكن أن يقال عن إنجازات عبد الناصر عامة وخاصة العزة والكرامة.

وقد آن الأوان أن تسقط للأبد أسطورة عبادة الفرد في بلادنا ويبدو أنها عادة فرعونية قديمة نجيدها ونتوارثها جيلاً بعد جيل.

ولهذا يجب أن تتعلم الأجيال الجديدة من أخطائنا فلا نقبل المسلمات دون أن تناقشها ولا تقبل الممنوعات دون أن تكشف سرها ، ولا تترك مصيرها وأقدارها في يد مستبد عادل لأن الذي يبقى هو الكلمة الأولى ، أما الثانية فليس لها وجود الآن في دنيا السياسة.

ومن هنا تبقى الحرية والديمقراطية هي الأمن والحماية والملاذ لنا جميعاً ولا مستقبل لنا إلا بهذا الحق الإلهي العظيم الذي منحه الخالق لعباده ، وليس من حق أحد مهما علا قدره أن يصادر إرادة رب العالمين . [1]

ولم تكن الدعاية الناصرية الجبارة التي ضخمت الإنجازات وبررت الإخفاقات ، ولا قوة القمع الناصرية الباطشة التي غيبت كل المعارضين في السجون والمعتقلات ، هما – وحدهما – ما خرَّبا الشخصية المصرية بل ساهمت في ذلك أيضاً القرارات الاشتراكية والقضاء على الأعمال الحرة وتحويل العمال إلى موظفين لدى الدولة يتقاضون أجراً ثابتاً آخر الشهر عملوا به أو لم يعملوا ، وبقدر تملق الرؤساء بقدر ما تكون الترقيات والعلاوات فانتفت قيمة العمل الخلاق والإبداع والتميز وانتشرت الانتهازية والوصولية واستغلال النفوذ .

يقول ثروت عكاشة : " الجم الغفير من المواطنين الذين أصبحوا يلقون بعبء الحصول على أرزاقهم على الدولة لا على جدِّهم واجتهادهم ، بسبب ميل الدولة إلي جعل المواطنين عالة عليها لا تعرف سبيلاً للحصول على الرزق بعد الله إلا عليها ، الأمر الذي لا شك سيخلق في الناس التراخي والخمود واللامبالاة فينتهي بنا الأمر إلى حياة راكدة تستشري معها الذاتية وتغيب معها معاني التضحية ويتوارى الانتماء[٢]

ولقد صحب اعتماد المواطنين على الدولة تحول كثير من المصريين بفعل سوء الأداء الحكومي وممارساته السلبية في شتى المجالات إلى مواطنين يشعرون شعوراً قويّاً بالحقوق أو المزايا دون أن يلازم هذا الشعور بالحقوق شعور مماثل بالواجبات فإذا نحن أنعمنا النظر في مواطن مصري يصلح أن يكون نموذجاً للمواطن العادي، وجدناه عظيم الاهتمام بحقه في التوظف العام ، وحقه في العديد من مزايا هذا التوظف ثم حقه في الحصول – عن طريق الحكومة إن أمكن – على سكن ثم

([1]) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " مرجع سابق ص ١٤ ، ١٥ .
([2]) أنور السادات " البحث عن الذات " مرجع سابق ص ١٧٠، ١٧١ .

الحصول على فرصة للعمل بالخارج عن طريق إعارة إلى مالا نهاية له من المزايا التي تقوم الدولة أو بعض مرافقها أو إداراتها بتوفيرها سواء منها المهم كشراء سيارة ، أو منحة للتدريب بالخارج أو الأقل أهمية كالسفر إلى أحد الشواطئ للتصييف ، أو شراء سيارة بأقساط معقولة إلى شراء حاجيات الحياة اليومية من مأكل وملبس وخلافهما ، ولكننا لن نجد – قط – شعوراً مماثلاً بالواجب كشعور المواطن الألماني – مثلاً – بواجب المساهمة الفعَّالة في الإنتاج والرقي به كمَّاً وكيفاً ، بالإضافة لأشكال أخرى من الشعور بالواجب ، كواجب المحافظة على المال العام وعدم انتهابه وإهداره وواجب الحفاظ على سلامة ونقاء ونظافة وجمال البيئة التي يعيش المواطن فيها ، وواجب المساهمة في حل مشاكل المجتمع بالتفكير الجاد في أسبابها وطرق علاجها . [1]

***

([1]) طارق حجي " نظرات في الواقع المصري " مرجع سابق ص ٦٩ بتصرف يسير .